حائز "جائزة دبلن للآداب" 2004

الطاهر بن جلّون

الإرهاب كما نشرحه لأولادنا

ترجمة
جان هاشم



دار الساقي

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- عشر ليالٍ وراوٍ
- عينان منكسرتان

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

الطاهر بن جلون

الإرهاب
كما نشرحه لأولادنا

ترجمة

جان هاشم



Tahar Ben Jalloun, *Le terrorisme expliqué à nos enfants*

الطبعة العربية

الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-6-14425-935-1

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033—6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français.

ماذا نقول لأولادنا عن الإرهاب؟

نقول لهم الحقيقة. وخصوصاً علينا ألّا نستخفّ بقدرتهم على سماع ما يزعج، وعلى مواجهة الرعب. ليس أنهم أقوى من البالغين أو أكثر حصانة منهم، إلا أنّ عندهم من الإدراك ما يؤهّلهم لذلك، وبالإمكان التعامل مع هذا الإدراك، من دون أن نخشى انعكاسات كارثية على نموّهم، لكن بشرط واحد وهو أن نُحسن اختيار الكلمات واللحظة المناسبة والطريقة الملائمة. وبالعكس، فإنّ الكذب والإنكار قد يتركان مضاعفات ويتسبّبان لهم بعُقد نفسية، إذ لا يمكن خداعهم، لأنّ المعلومة تصلهم أحياناً عبر قنوات يجهلها البالغون. ومن شأن تزيين العالم لهم، ونفي خطورة الوقائع، إما بإنكارها وإما بتبطينها أو تغليفها، أن يعزِلهم فعلاً عن الحياة الواقعية، بما فيها من جمال وعنف على حدٍّ سواء.

وسيكتشفون في نهاية المطاف أنهم مخدوعون، ويطالبون بأن يطّلعوا على حقيقة ما جرى.

إن حكايات شارل بيرّو Charles Perrault زاخرة بالفظائع، وقصص **ألف ليلة وليلة** أكثر هولاً، وهذا على الأرجح ما جعلها محبوبة، وما صنع عالميّتها ومعاصرتها الثابتتين على مرّ التاريخ. وهي في جوهرها تتناول مسألة الصراع بين الخير والشرّ، التي يعيها الأولاد جيّداً، ويُلمّون على الأرجح بكلّ تعقيداتها.

واليوم مهما تكن الاحتياطات التي يتّخذها الأهل، فهي لا تُبعد الأولاد كلياً عن مشاهد العنف والوحشية الفظيعة، التي تعرِضها بعض ألعاب الفيديو والشرائط الغنائية المصوّرة، كما أنّ السينما نفسها تسهم في هذه النظرة إلى العالم، حيث يبدو القتل بواسطة المنشار الآلي عملاً مألوفاً، فضلاً عن الأفلام الإباحية، التي تكفيهم نقرة واحدة للدخول إليها، بمجرّد أن يُدير الأهل ظهورهم.

إنّ الصدمة التي عاشتها كلّ من الأُسر التي فقدت أحد ذويها في اعتداءات كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥، أو في اعتداءات ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر، مدمِّرة للبالغين كما

للأولاد على حدٍّ سواء، والكبار كما الصغار بحاجة إلى توضيحات صريحة، وإلى السلوان، وكذلك إلى مداواة جرحهم النفسيّ، وذلك بمساعدتهم على تقبّل الواقع بما فيه من مفاجئ ومؤلم. وهذا ما يتطلّب التحلّي بالصبر وحسّ التربية. وكذلك تجاوز مرحلة الانفعال وصولاً إلى الجوهر، أي إلى الوقائع. فالحزن حالة قاسية، وتزداد قساوة مع الزمن.

يُحدِث فقدان عزيز وغيابه جراحات في الحياة، مهما يكن العمر أو الجنس. وأكثر من البالغين على الأرجح، يتطلّب إفهام الأولاد هذا الأمر كلمات أفضل اختياراً، وأكثر دقّة.

استيعاب الموضوع هو بداية الطريق إلى تقبّل الوضع. ولا يعني التقبّل المسامحة، أو النسيان، بل مقاومة وهم إمكان تغيير أيّ شيء في أحداث الماضي. والتقبّل يعني مواجهة الأمور مباشرةً، وإدراك أنّ الحياة ليست نزهة جميلة كلّ ما فيها رائع، وحيث الجميع يتمتّعون بالطيبة والودّ والشهامة وحبّ الخدمة، وأنّ الشرّ قائم، وبإمكان أيّ كان أن يؤذي إمّا لمجرد المتعة، أو لسبب آخر خسيس، ومَن في قلبه "تعطّش للأذية" لا يرفعه على جبينه، بل يتفاعل كلّ شيء

داخل رأسه المغلق على أيّ كان، حتّى على أهله الذين غالباً ما يكونون أول المفاجَئين بالأعمال الرهيبة التي ارتكبتها ابنتهم أو ابنهم.

يجري هذا الحوار شبه المتخيَّل بيني وبين إحدى بناتي، ومن البديهي أنّ طريقة الكلام مع الصبي، ومع البنت، ليست هي نفسها، فبعض المسائل تحظى أكثر باهتمام هذا الجنس، وبعضها باهتمام الجنس الآخر.

والتوضيح بالطبع لا يعني التبرير ولا التبرئة، بل هو يساعد من يتساءل من الجنسين على فهم ما يحدث بطريقة أفضل.

في ذلك اليوم...

– بابا، أحسّ أنني مسترهَبة.

– هيّا، أوضحي لي ما تحسّين به.

– أنا خائفة، دوماً خائفة.

– لماذا؟ أنتِ محاطة بأسرتك، بأصدقائك، لا ينقصك شيء، فلِم الخوف إذاً؟

– لأنّني أعرف أنّ شيئاً مرعباً يحوم حولنا، ولا أعرف ما هو. تتراءى لي أحياناً صور قاتمة غامضة مبهمة، لكنها خطرة...

– هل تفكّرين في ضحايا الـ١٣ من تشرين الثاني/ نوفمبر؟

– نعم بالتأكيد، لكن ليس هذا فقط. أفكر في أنه كان يمكن أن أكون في باتاكلان، أنا أو صديقاتي، فينتابني خوف

كأنني على وشك الموت، لكنني لا أموت.

- وكيف تصفين هذا الخوف؟

- كما لو أنه كتلة ضخمة ثقيلة تنقضّ علينا ونحن صغار جدّاً في مواجهتها. ويعلق هذا في حلقي فلا تخرج الكلمات، إحساس بالاختناق وفقدان التوازن... للخوف عدة أوجه... أشعر بثقل، نعم، بثقل ضاغط على صدري، ولا أجد تفسيراً لذلك في عقلي.

- هذا الخوف هو الهلع، يتولّد من الرعب، ويصيبنا بالذعر أحياناً. عندما نهلع يسقط في أيدينا فنعدم الوسائل ونصبح عطوبين، مع الإحساس بأنّ الشقاء يلاحقنا. يكاد منطقنا يختلّ ويبدو عقلنا عاجزاً. ومهما فعلنا نجدنا معرَّضين للخطر، لأننا لا نعرف من أين يباغتنا العنف. وهذه هي الوسيلة الأكثر فعاليّةً التي اعتمدها البعض لفرض آرائهم ومحاربة طريقتنا في العيش والتفكير. ولأنّ المنطق والقانون والحقّ لا تناسبهم، فقد اختاروا الدمار والموت. يبقون خارج إطار ما تسمّى المجتمعات المتحضِّرة، أي المجتمعات التي تتقبّل فكرة عيش الناس المختلفين معاً من دون أن يتشاجروا عليها، مجتمع يسوسه العقد الاجتماعي.

- مجتمع متمدّن؟

- نعم، مجتمع منظَّم يمكن أن نعيش فيه، كما يقال، في جوّ من الوئام القائم على المبدأ التالي: أحترم حقوقك وتحترم حقوقي، وكلّ هذا في إطار مرتكز على القيم التي تميّزنا عن الحيوانات، وكما أوضحت في كتابي عن العنصرية، كلّنا مختلفون وكلّنا متشابهون. وإذا أردنا العيش معاً بسلام، فعلينا احترام القوانين والحقوق التي هي في أساس قيام "المدينة". فكلمة "مدينة" مشتقّة من "مدن"، وأن يكون الإنسان مدنيّاً يعني أن يكون مواطناً ملتزماً معايير المدينة وقوانينها، رجلاً كان أم امرأة ورث ما راكمه أولئك الذين سبقوه منذ عدة أجيال. وكثيرة هي المعايير، وكثيرة هي القوانين! ولذلك نجد كتاب القانون المدني الفرنسي بهذه الضخامة.

- أي إنّ الحضارة تعني أن نتعلّم العيش معاً؟

- نعم، بل أكثر من ذلك، لأنّ الحضارة كما حدّدها سانت إكزوبيري "هي ميراث من المعتقدات والأعراف والمعارف". هي التصرّف بما يجعل الثقافة والمعرفة والفكر متوافرة في كلّ ما نعمله. وهناك أديب آخر، هو

توماس مان، كتب عام ١٩١٨ أنّ الحضارة هي "العقل والتنوّر والمودّة والتأدّب والشكّ المنهجيّ والارتياح والفكر". فالتمدّن يعني التقدّم والتحسّن ونصب أعيننا مثال الخير واحترام الآخر، لكن يمكن ألّا يذهب المرء أبداً إلى المدرسة، مثل جدّتك، ويكون متمدّناً تماماً. فالقيم تنتقل عبر طريقة العيش، كما قال توماس مان أيضاً إن الفكر أهمّ من الأشياء المادّية المقيَّمة بالمال.

- وإلّا؟

- وإلّا فسننساق إلى العنف الأعمى والقوّة الوحشية التي تقتل وتذبح. وابتداءً من اللحظة التي نتنكّر فيها للقوانين ونمتنع عن احترام الحياة الإنسانية، بالقتل وذبح الأبرياء، نستقرّ في الترهيب الذي ينقض العقد الاجتماعي. وليس هذا العقد مكتوباً بل هو مقدّر وضمنيّ. نحن بالعادة نعرف أنه يجب ألّا نسرق الآخرين ونغتصبهم ونقتلهم. وهذا ما يجعلنا بشراً نحترِم ونُحترم. وإلّا فستعمّ الفوضى وتسود شريعة الغاب، شريعة الأقوى، فتنعدم الأخلاق والثقافة والإنسانية.

- وهذا هو الإرهاب.

- إنّ الإرهابي يهدّد قبل أن ينفِّذ الاعتداء، وهو يمارس

الابتزاز في بعض الحالات.

- وما هو الابتزاز؟

- هو أخذ شعب مثلاً كرهينة، وإبلاغ الحكومة رسالة مفادها:

"إذا لم تلبِّ مطالبنا، إذا لم تعطِنا ما نطالبكِ به، فسوف نفجّر قنبلة في مكان عام مكتظّ بالناس".

- صحيح أعرف ذلك، رأيته في الأفلام السينمائية.

- إنّ نشر الرعب عبر التهديد يهيّئ لما سيكون أشدّ عنفاً، أي لعملية القتل. يستولي الرعب على الجميع، فيما الدولة، مهما كانت قوتها، تقف عاجزة أمام ذلك. فكيف العمل على طمأنة الشعوب؟ هذا صعب. فقد تقرّر إعلان "حالة الطوارئ"، كما فعلت فرنسا على أثر اعتداءات ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٥، وتمديدها، وهذا يسمح للشرطة بتنفيذ أعمال تفتيش لبيوت الناس من دون الحصول على تكليف من القاضي المختصّ، لكن يجب أن نفهم تماماً أنْ لا شيء يثني أبداً إرهابيّاً عازماً على تنفيذ فعلته.

- إذاً أعطني تعريفاً بالإرهاب.

- الإرهاب هو أولاً وسيلة وطريقة عمل. لا هو فكر

ولا فلسفة. إنه اعتماد العنف ضدّ أشخاص أو ممتلكات بهدف إرغام الحكومة على تلبية المطالب التي رفعها أناس لا نعرف وجوههم ولا هويّاتهم. وأحياناً لا تكون أهداف الإرهاب محدّدة على نحو واضح، بل هو يقضي بكلّ بساطة بقتل أشخاص يختارهم عشوائيّاً. أمّا الهدف، فهو زرع الرعب وجعل كلّ واحد يقول في نفسه: "كان يمكن أن أكون مكان هذه الضحية". فلا يبقى أحد في منأى عن الخطر، ويضطرّ الناس إلى تغيير نمط حياتهم، لا يخرجون للسهر ليلاً، ويتفادَون التردّد على الأماكن العامة التي غالباً ما تُستهدف. تختلّ الحياة بكلّ ما للكلمة من معنى.

- هل يفعل الإرهابيون ذلك من أجل المال؟

- ليس للمال فقط، بل يمكن أن يكون هدفهم سياسياً أو دينيّاً، أو هم يسعَون فقط إلى زعزعة الاستقرار في بلدٍ ما لأسباب يجهلها الناس.

- هكذا قُتلت نسيبتي ليلى علوي في واغادوغو! قضت مع تسعة وعشرين آخرين كانوا يتناولون طعام العشاء آمنين في أحد المطاعم الإيطالية. إنه لأمرٌ رهيب!

- نعم ليلى هي المثال النموذجيّ عن ضحية الإرهاب.

فقد كانت في الوقت الخطأ في الزمان الخطأ، وما كان ليخطر ببالها أنّ الإرهابيين سيستهدفون عاصمة بوركينا فاسو.

– أهم الجهاديون؟

– مهمّة هؤلاء الأفراد تقوم على القتل وزرع الرعب. وباسم أيّ شيء؟ ربما أرادوا بكلّ بساطة أن يُفهمونا بهذه العمليات الصادمة والقاتلة أنّ نظرتهم إلى هذا العالم هي وحدها الصالحة.

– وماذا عن الذين يدّعون القيام بالجهاد؟

– الذين يلجأون إلى الجهاد إنما يُحيون ممارسات قديمة العهد. أمّا نحن، فسنتكلم بعد قليل عن الجهاد وتجدّده حاليّاً.

– حسناً، سأسألك في ما بعد عن الجهاد، فلنعد إلى الترهيب.

– سأستعرض معك بإيجاز بعض الوقائع التاريخية. إنّ ممارسة الترهيب كشكل من أشكال العمل قديمة العهد، وللمزيد من التحديد هي تعود إلى زمن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. وقد أُطلق اسم "الترهيب" على الفترة الممتدة من

أيلول/سبتمبر عام ١٧٩٣ إلى تموز/يوليو عام ١٧٩٤، عندما شرعت الحكومة المنبثقة عن الثورة في النضال على نحو وحشيّ وشرس ضدّ من سمّتهم "أعداء الداخل والخارج". وقد أفضت إلى قيام نظام ديكتاتوري، وضاعفت من عمليات الإعدام، إعدام الملكة ماري أنطوانيت مثلاً. لقد نشرت الرعب على حساب القانون والعدالة، ولم ينجُ أحدٌ من ذلك، وكان أيّ مشبوه يُعتقل ولا يلبث أن يُعدم. وسيطر الخوف على كلّ الناس، كما استشرى هذا النوع من الترهيب في القرنين التاسع عشر والعشرين، وخصوصاً في عدّة دول في أميركا اللاتينية وأفريقيا. في عام ١٨٧٢ طوّر رجل معروف باسم "باكونين" في روسيا عقيدة عُرفت باسم "الفوضوية"، لم تكن تحترم أيّ قانون ولا أيّ حقّ. وكان شعاره هو التالي: "لا الله ولا السيِّد". وبوحي من هذه العقيدة قَتل بعض الفوضويين الناس، وعموماً من عليّة المجتمع. وفي تلك الحقبة لم يكن القتل باسم الله، على غرار جهاديّي اليوم. فهذان نوعان من الترهيب مختلفان على الصعيدين التاريخيّ والسياسيّ. وليس بالضرورة أن يتحوّل الفوضويّ إرهابيّاً، لكنّ التزام الجهاد يعني الذهاب

إلى الحرب للقتل أو للموت باسم الإسلام.

وقد عاشت فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر مرحلة نشطت فيها الحركة الفوضويّة إلى حدٍّ كبير. ومن أشهر الشخصيات التي تمثّلها رجل يدعى رافاشول (١٨٥٩-١٨٩٢) وقد حُكم عليه بالموت وأُعدم على المِقصلة بسبب الجرائم التي ارتكبها باسم هذه الحركة.

- أعطني فكرة أكثر دقّة عن الفوضوية.

- إنها انعدام التراتبية وغياب القيادة، فلا سيّد ولا ربّ عمل ولا دولة ولا حكومة ولا شركة ولا نظام. إنها الثورة الدائمة على النظام، اجتماعياً كان أم دينياً أم سياسياً. يعمّ التشكيك في كلّ شيء، ويُدمَّر كل ما هو قائم.

- لكن لماذا كان هؤلاء الفوضويون يقتلون؟

- لكي يزرعوا الفوضى والذعر. يسعى الفوضويون على نحو أساسيّ إلى تقويض الدولة، وفي رأيهم أنّ ما يفعلونه لمصحلة الإنسانية!

- هذا يعني الفوضى!

- صحيح، وهذه الفوضى تجعل كلّ شيء سائباً بلا حماية، ممتلكاتنا وممتلكات الآخرين.

- وهل يمكن وجود مجتمع لا يحقّ لأحدٍ فيه اقتناء الممتلكات؟

- هذا خداع.

- ماذا يعني ذلك؟

- إنها فكرة مثالية. فالإنسان منذ أن كان برهن عن غريزة الحفظ والتملّك، وهذه الحقيقة عارضها في الحقيقة الفوضويون الفرنسيون والإسبان، وقد هاجموا أصحاب الأملاك واغتالوهم. وعندها أحسّت الدولة، وهي ضامنة الأمن وحماية الملكيات، بأنها مهدّدة. فدافعت عن نفسها بكل الوسائل، إنما باحترام دولة القانون في معظم الأحيان.

- وهل يحقّ للدولة، من أجل حماية نفسها أن تردّ على الترهيب بترهيب آخر؟

- سبق أن أطلق وزير داخلية فرنسي أسبق، بعد موجة اعتداءات في باريس في تسعينيّات القرن الماضي هذه العبارة التي أصبحت شهيرة: "سوف نرهّب الإرهابيين"، أي بعبارة أخرى، سيعتمد وسائلهم لمكافحتهم. كلا، فعلى الدولة تطبيق القانون واحترام كلّ أصول دولة القانون. إنّ غاية الإرهابيين هي إرغام دولة القانون على مناقضة نفسها، كأنْ

تلجأ مثلاً إلى وسائل دفاعية غير مشروعة لا تحترم القوانين ولا الحقوق. سبق أن قلت لك إننا كي نتمكّن من العيش جميعاً في سلام تلزمنا ترسانة من القوانين والأصول. وإذا لم نحترمها، إذا تصرّف كلٌّ منا على هواه، وفقط بما تُمليه عليه مصلحته، تصبح الحياة المشتركة مستحيلة، فيسود مبدأ الأقوى وشريعة الغاب.

- وما هي دولة القانون؟

- إنّها الدولة التي تعمل وفق مبادئ الديموقراطية وقيمها الموضوعة لحماية الأفراد بفضل القوانين والمعايير التي لا يحقّ لها انتهاكها ولا تحويرها ولا الالتفاف عليها، وبالتالي لا يمكن دولة القانون أن تردّ على الإرهابيين باعتماد ما يعتمدونه هم من عنف أعمى واعتباطيّة. فلا يجوز أن يكون هناك عدالتان، واحدة للمواطنين المسالمين، وأخرى للذين يحملون السلاح لاقتراف الجرائم في حقّ الأبرياء. فالقاعدة هي أن تكون العدالة واحدة والمبادئ نفسها للجميع. فكل مواطنٍ يُعتقل يُعدّ بريئاً إلى أن تثبت إدانته... أو براءته. إنّ دولة القانون هي الإطار الأساسي لكلّ نظام ديموقراطي، وهذا ما يُلغي بالمبدأ الامتيازات وسياسة تجاوز القانون

والفساد والمحاباة وتنفيع الأقارب.

- ماذا يعني تنفيع الأقارب؟

- هو أن يأتيَ الحاكم بأفراد من أسرته الضيّقة لتبوئهم المناصب من دون السماح لغيرهم بالوصول إليها. وهي سياسة متّبعة في كل مكان في العالم تقريباً، لكن في أوروبا لا تقصّر الصحافة في فضح رجل السياسة الذي يعتمدها.

- وكيف للديموقراطية أن تقف في وجه الإرهاب؟

- أدركتِ إذاً أنها ليست مهيّأة لترد عليه. فالوسيلة الوحيدة التي تملكها في إطار دولة القانون هي تطبيق القانون والعدالة. لا يحقّ لدولة القانون أن تلجأ إلى ممارسات الإرهابيين نفسها، بل يجب أن يُحاربوا على عدة مستويات، وهي الاستخبارات والمراقبة والتيقّظ والاستباق، وهذه يحقّ لدولة القانون أن تطبّقها.

- لماذا إذاً أعلنت فرنسا حالة الطوارئ بعد أحداث تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٥؟

- هذا إجراء استثنائيّ. فآخر مرّة أعلنت فيها فرنسا حالة الطوارئ كانت عام ١٩٥٥ أثناء حرب الجزائر، وذلك ردّاً على هجمات نفّذها مقاتلون يناضلون من أجل استقلال

الجزائر، التي كانت تعدّ إذّاك فرنسية.

- هل تعني أنّ هناك صلة وثيقة بين الإرهاب والسياسة؟

- الإرهاب طريقة عمل لا فكر كما قلت لك، إنه اعتماد الترهيب لأهداف سياسيّة أو إيديولوجية أو دينية. وأحياناً تكون الغايات مجرّد سلب أو فرض فدية بعد احتجاز الرهائن، وتجارة المخدّرات أو الاستعباد الجنسيّ، وإليك بعض الأمثلة.

في كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥ جرت في مخازن "كاشيه" الكبرى في فانسان عملية احتجاز رهائن أطلق فيها الإرهابيّون خطاباً دينياً وعنصريّاً. ولم يكن اختيار هذا المكان من باب الصدفة، إذ أراد الإرهابيون قتل يهود، كما فعل من قبلُ محمد مراح، وهو من قتل بكل برودة أعصاب ثلاثة طلاب يهود في تولوز في ١٩ آذار/مارس عام ٢٠١٢، ومهدي نموش الذي هاجم في ٢٤ أيار/مايو عام ٢٠١٤ متحفاً يهودياً في بلجيكا وقتل أربعة أشخاص.

ومن قبل كان الاعتداء الذي استهدف يهوداً في شارع "لي روزييه" عام ١٩٨٢ قد أدى إلى سقوط ستة قتلى واثنين وعشرين جريحاً. وقد نفّذه أبو نضال، وهو منشقّ عن منظمة

التحرير الفلسطينية. وفيما بعد، عام ١٩٩٥، وقع الاعتداء على محطة سان ميشال للسكك الحديدية في باريس على يد عنصر كومندوس من الجزائر تابع "للجماعة الإسلامية المسلّحة"، وقد سقط فيه ثمانية قتلى و١١٧ جريحاً. في تلك الفترة كانت الحرب الأهلية مستعرة في الجزائر بين الإسلاميين والجيش. كانت السلطة الجزائرية قد ألغت عام ١٩٩١ الانتخابات التي فاز فيها الإسلاميون، وردّاً على هذا القرار المنافي للديموقراطية وغير القانوني، أعلن بعض الإسلاميين الحرب على السلطة الجزائرية. وقد دامت هذه الحرب الأهلية خمس عشرة سنة، وسقط فيها أكثر من مئتي ألف قتيل.

– هذا يعني أنّ كل شيء ممكن في الإرهاب؟

– نعم، كل شيء ممكن. فاللجوء إلى العنف الأعمى القاتل يكون إما انتصاراً لقضية سياسية، وإما للابتزاز المالي، وإما لتحقيق مكاسب أخرى.

– هل تقصد أن محتجزي الرهائن الذين يطالبون دولة ما بتغيير سياستها إرهابيون؟

– نعم، محتجزو الرهائن إرهابيون كغيرهم، مع فارق

بسيط هو ادّعاؤهم الدفاع عن نموذج مثالي ذي طابع سياسيّ. هم يضغطون على الدولة لأسباب سياسية. يرهّبون المدنيين بغية التأثير في قرارات الحكومة.

- أحياناً يكون الإرهاب سياسيّاً صرفاً، أليس كذلك؟

- نعم هكذا ترتكب بعض الجماعات المعارضة جرائم عشوائيّة من دون أن تقدّم أي مبرّر. تكون غايتها فقط نشر الذعر في أوساط الشعب بما يحرمه العيش على نحو طبيعي. فقد تنفجر قنبلة في أي مكان. وقد يفتح قاتل ما نيران رشاشه على أناس لا يعرفهم ولا يعنون له شيئاً. وعندها يعمّ الرعب الناس جميعاً، لأنّ كلّ شخص يمكن أن يكون هدفاً لقاتل يتعمّد تحديداً إطلاق النار عشوائياً وحصد أبرياء.

- فهمت، همّ الإرهاب هو نشر الرعب.

- نعم وليس فقط أنه يزرع الخوف، بل هو مرعب، إذ لا يمكن توقّعه، أي متخفٍّ، فلا نعرف أين يضرب ومتى. هذا ما حدث في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر في مسرح باتاكلان في باريس، وفي مقاهي الحيّ ومطاعمه. لم يتصوّر أحد أنّ حفلة روك موسيقية يمكن أن تتحوّل مكان هول على هذا النحو، ولا أنّ تناول كأس مع الأصحاب في ليلة عليلة النسيم

قد يتنهي بهذه المجزرة. في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر هاجم الإرهابيون نمط حياة الناس المتحضّرين، أشخاصاً يعيشون معاً بالرغم من اختلافاتهم وتنوّعهم. وفي كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥ هاجموا مكاتب مجلّة **شارلي إيبدو**، أي بعبارة أخرى هاجموا حرية التعبير والكتابة والتفكير والرسم، باختصار الحريّة وحسب.

- إذاً بما أننا لا نعرف أين يكمن ولا متى سيظهر، فنحن نعيش تحت رحمته. هذا هو سبب خوفي الذي حدّثتك عنه...

- من الطبيعي أن نخاف، فنحن بشر نتمتع بغريزة البقاء. إنما علينا التغلّب على خوفنا! على كل واحد أن يحاول وأولاً بأول أولئك الذين يتولّون سياسة البلاد. فالانفعال لا يفيد عندما يتطلّب الأمر رسم مسار عملٍ في هذه اللحظات العصيبة.

- ما العمل إذاً؟

- هناك إجراءات يجب اتّخاذها فوراً، وهذا ما تحسن الحكومات فعله عموماً، لكن يجب التفكير في المستقبل، وهنا يُفترض بفرنسا وسائر الدول التي وقعت ضحية

الإرهاب أن تقبل مراجعة سياستها وإعادة النظر في علاقاتها، سواء مع بعض دول الشرق الأوسط أم مع مثيري الشغب على الأراضي الفرنسية. وفي الظروف الحالية، عندما عمدت فرنسا إلى إقرار حالة الطوارئ وتمديد العمل بها، وفّرت لنفسها إمكانات الاستقصاء وتنفيذ أعمال تفتيش عندما ترتئي الشرطة ذلك. وهذا ما طمأن المواطنين، لكن كما قلت لك لا يمكن الدولة أن تتخطّى حدود القانون. فلا يمكنها ترهيب الإرهابيين وتطبيق وسائلهم عليهم. فالمطلوب أولاً استباق أيّ اعتداء جديد، وذلك بأن تشغّل استخباراتها وتنسّق مع الدول المعنية بهذه الكارثة. يجب التفتيش عن جذور الإرهاب واكتشاف أسبابه حتى وإن كانت قديمة العهد. يجب معرفة كيف يتولّد ذلك، ولماذا يختار الناس هذه الوسيلة للتعاطي مع البلاد أو الدول.

- ليست حالة الطوارئ وحدها كافية إذاً؟

- إنها ردّ فوريّ لكنها ليست كافية. ثم يجب الاحتراس، إذ من المعروف أنّ في أذهان قسم من الفرنسيين يعدّ كلّ مسلم، وكل عربي، مشروع شخص جهادي. ولذلك شجبت منظمة "هيومن رايتس واتش" تجاوزات الشرطة

في خلال أعمال التفتيش، وخصوصاً في الضواحي، فنشرت في ١٣ شباط/فبراير عام ٢٠١٦ تقريراً بعنوان: "فرنسا والانتهاكات المرتكبة في ظلّ حالة الطوارئ"، وقد ورد فيه: "نظراً لانعدام العناصر المقنعة التي تقدمها الحكومة تبريراً لتمديد حالة الطوارئ، فضلاً عن الكثير من التجاوزات وانعكاساتها على الأشخاص المستهدفين، وهم في غالبيتهم مسلمون، ندعو إلى عدم تمديد هذا الوضع الاستثنائي، كما نشدّد على أهمّية إصدار الإذن القضائي اللازم لضبط سلوك رجال الشرطة، وذلك بغية ضمان حصول المراقبة الفضلى والضرورية".

- نعم بالطبع، كل الناس معرَّضون، والمسلمون ضمناً، لكن أليس هناك إلا إرهاب الإسلاميين؟ ثمّ ما هو أساس هذا الإرهاب؟

- سبق أن قلت لك إنّ الفوضويين مثلاً يقتلون الناس المطمئنّين سعياً منهم إلى ضرب الدولة والنظام والشرطة والجيش. لقد زرعوا الرعب في فرنسا كما في إيطاليا وإسبانيا. ففي الفترة الممتدّة ما بين عامي ١٩١٩ و١٩٢٣ تحوّلت برشلونة مسرحاً للإرهاب بفعل النزعة الفوضوية

التي تحكّمت في بعض النقابيّين الذين أرادوا الانتقام من الجيش والشرطة، حتى إنه كان يسقط ثلاثون مدنيّاً يومياً. وانتهت مرحلة الرعب هذه، بما فيها من أعمال تخريب ومقاطعة، مع الانقلاب العسكري الذي قاده الجنرال بريمو دي ريفيرا، الذي فرض في إسبانيا، بعد عام ١٩٢٣، نظاماً ديكتاتورياً صارماً. "فليحيا الموت"، تلك كانت صرخة التعاضد في أوساط الفوضويين، وهذه نقطة مشتركة بينهم وبين جهاديّي اليوم، الذين هم أيضاً ينادون بالموت، موتهم هم أنفسهم، وعلى الأخصّ موت الأبرياء المجهولين. فاعتماد الإرهاب طريقة متطرّفة لفرض الأفكار (الدينية أو السياسية) وللخروج عن القانون والتنصّل من العقد الاجتماعي المفترض أن يضمن للمواطنين أمنهم وسلامهم. فالإرهابيون لا يعترفون بهذا العقد، إنما هم يمزّقونه عندما يقتلون من دون سابق إنذار كما فعل بعض الجهاديين الفرنسيين عندما أحرقوا جوازات سفرهم وبثّوا شريط الفيديو الذي يتحدّون فيه وطنهم.

- وماذا عن النرويجي الذي قتل عدداً كبيراً من الناس، فهل كان دافعه دينيّاً؟

- تقصدين أندرز بيرنغ بريفك. كلا، بل هو عمل فرديّ نفّذه في ٢٢ تموز/يوليو عام ٢٠١١ ذاك الشخص الذي تصرّف على نحو إفرادي. كانت دوافعه معقَّدة ولم تتّضح كلياً بعد. خطّط لكلّ شيء من دون شريك، وتمكّن من حصد ٧٧ قتيلاً و١٥١ جريحاً، وقد حكم عليه بالسجن المؤبَّد. وحالته هذه تشبه حالة أعضاء ذاك المذهب الياباني الذين أطلقوا في ٢٠ آذار/مارس عام ١٩٩٥، غاز السارين السام الفتّاك في أنفاق مترو طوكيو، ما أدّى إلى وفاة ١٢ شخصاً وجرح ٥٥٠٠ آخرين. ولا يقلّ هذا الترهيب خطراً عن الأول، لأن مدبّريه أناسٌ تجهلهم أجهزة الشرطة والاستخبارات. ولذلك من المستحيل استباق هذا النوع من الاعتداءات. والأمر نفسه ينطبق على ذاك المغربيّ المدعو عادل عثماني، الذي ركّب بنفسه قنبلة وفجّرها في ٢٨ نيسان/أبريل عام ٢٠١١ في المقهى الشعبي، الأرغانا، في جامع الفنا في مراكش، ما أدّى إلى مقتل ١٧ شخصاً وجرح ٢٠ آخرين.

- وكيف تبلغ الأمور هذا الحدّ من الجنون ليقرّر أحدهم قتل أناس لا يعرفهم ولأسباب تبقى مجهولة؟

– يتكلّم البعض عن "العدميّة"، وهي مذهب رؤيته إلى العالم عبثية ترفض الحياة، يحكم في كل الأمور من وجهة نظر سلبية. وعلى هذا المستوى ينعدم المنطق والعقل وعمل الخير، وبالعكس يسيطر ما أسمّيه "التعطّش إلى الشرّ"، الشرّ المطلق المدمّر وغير المبرَّر، إن لم أقل غريزة الموت التي يجري الانقياد لها حتى النهاية. غير أنّ الجهاديين ليسوا عدميّين، ليسوا أناساً محبطين حطّمهم اليأس والعبث. ولا هم مجانين أيضاً. هم يعملون لتحقيق هدف وينشطون من أجل نصرة مثالهم المتمثِّل في "الدولة الإسلامية" "الصافية"، حيث لا سلطة إلا لله الكلّي القدرة.

– أهو الصراع بين الخير والشرّ إذاً؟

– الأمر أكثر تعقيداً من ذلك بقليل. غالباً ما يقال إن الإرهاب سلاح الضعفاء والمقهورين والناس المحبطين الذين لا يتمكّنون مثلاً من تحرير بلادهم الواقعة تحت احتلال دولة أخرى. وقد توسّلت شعوب كثيرة الإرهاب من أجل تحرير بلادها، لكنّ هذا لا يقارن على الصعيد الأخلاقي بما يقترفه الجهاديّون.

يجب التمييز بين الإرهاب الأعمى ذي الأهداف الغامضة

والمرفوضة والكفاح من أجل التحرير الوطني أو أعمال قوات مقاومة الاحتلال. ففي المقاومة من الشرف والنبل بقدر ما في الإرهاب من جُبن وسفالة.

- أي إنّ هناك في رأيك إرهاباً "نظيفاً"؟

- لا، أبداً، حذارِ! لا يجوز في مطلق الأحوال الخلط بين الإرهاب والمقاومة. فلنقل إن الرجال والنساء، في بعض الحالات التاريخية، لم يجدوا سوى العنف وسيلة لإيصال أصواتهم. وليس هذا مشروعاً بالطبع، لكنّ الإنسان في كلّ الأزمنة رفض أن يكون عبداً ومحروماً حرّيته وكرامته، ولذلك ثار واعتمد الخيار الأكثر راديكالية. فكلمة "مقاومة" مشتقّة لغوياً من فعل "قاوم"، وهي تعني "مواجهة الصعاب"، بينما كلمة "إرهاب" مشتقة من فعل "أرهب"، الذي يعني "أفزع"، لكن انتبهي لا يجوز على الإطلاق مساواة الإرهاب بالمقاومة. ومرة أخرى أقول لك إن الإرهاب وسيلة وطريقة عمل لا فكر أو فلسفة. وغالباً ما تنقاد المقاومة للعنف لكي تفرض بعض القِيم مثل الكرامة والعدالة والقانون. أما الإرهاب، فلا يقصّر في الاستخفاف بالقيم، وما يسعى إليه هو القتل والدمار حتى وإن كان وراء

هذه الأعمال ما يسمّيه القتلة "مثالاً". ولذلك نجد عدّة أنواع من الإرهاب. فعندما كانت فرنسا واقعة تحت احتلال ألمانيا النازية كثّفت المقاومة الفرنسية هجوماتها على النازيين، فعمدت مثلاً إلى تفجير القنابل عند مرور ممثّلي هذا المحتل. وهي لم تهاجم السكان المدنيين بل جنود الأعداء والمتعاملين معهم. فالخيار كان بين المقاومة أو الخضوع للإذلال، فيما اختار آخرون التعامل. فألمانيا النازية وكذلك نازيّو فرنسا المتعاملون معها، بدءاً من حكوماتها المتعاقبة، رأت أن المقاومين إرهابيّون. إلا أن التاريخ ينصفهم اليوم ويعدّهم مقاومين، وبعبارة أخرى، رجالاً ونساء ناضلوا من أجل كرامتهم وحضارتهم. ولا تنسَيْ أن كل المقاومين عبر التاريخ عوملوا كإرهابيّين على يد من كانوا يحاربونهم.

- إنتبه أنت هنا تبرّر الترهيب! ألست تعني بذلك أنّ هناك إرهاباً "جيّداً" وإرهاباً "سيّئاً"؟

- التوضيح لا يعني بتاتاً التبرير، لكنّ التاريخ شهد حالات قصوى بات فيها اعتماد الترهيب شرّاً لا بدّ منه، ذاك أنّ المقاومة السلمية واللاعنف، على ما فيهما من بُعد نبيل، ليسا فعّالين دوماً. وإليكِ بعض الأمثلة.

لقد قاوم قسم من الإيرلنديين البريطانيين بالسلاح على مدى عقود. كما أنّ اليهود من جهتهم لجأوا إلى العنف عندما كان الإنكليز يحتلون فلسطين. ففي ٢٢ تموز/يوليو عام ١٩٤٦ نفّذت منظمة "إيرغون" الصهيونية اعتداءً على فندق الملك دأود في القدس، ذهب ضحيته ٩١ قتيلاً. وفي ١٢ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٤٧ فجّرت منظمة إيرغون نفسها سيارة مفخخة مقابل باب دمشق في القدس القديمة، أودى بحياة ٢٠ مدنيّاً. وقد توالت الاعتداءات إلى أن غادر الإنكليز. وفي ١٧ أيلول/سبتمبر عام ١٩٤٨ اغتالت فرقة كومندوس من منظمة "شتيرن" وسيط الأمم المتحدة الكونت برنادوت. وكان لهذه الأعمال الارهابية أثرها في قيام دولة إسرائيل. ثم جاء دور الفلسطينيّين في اعتماد طرائق اليهود نفسها بغية تحرير الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧. وفي حرب الجزائر وصفت حكومة باريس الجزائريّين الذين حملوا السلاح من أجل الحصول على استقلال بلادهم بأنهم "إرهابيّون". وقد أكّد فرنسوا ميتران، الذي كان في حينه وزيراً للداخلية، أن "الجزائر هي فرنسا"، وحتى إنه وقّع الوثيقة التي أصدرتها وزارة العدل طالبة فيها رأي الحكومة

في إعدام "الثوار" الجزائريين باعتبارهم إرهابيّين.

– هل قام ميتران فعلاً بذلك؟

– نعم، وقد أصدر أوامره بإعدام الجزائريين الذين كانوا يكافحون من أجل حرية بلادهم واستقلالها. وبحسب المؤرِّخة سيلفي تينو فإنّ ١٩٨ سجيناً سياسيّاً أُعدموا في خلال حرب الجزائر، من بينهم سجين فرنسي هو فرنان إيفتون. وقد رفض بيار منداس فرانس، رئيس مجلس الوزراء آنذاك، أن يوقّع هذا الأمر. وهنا يكمن كلّ الفرق بين هذين السياسيّين. والحقيقة أن فرانسوا ميتران، عندما أصبح لاحقاً رئيساً للجمهورية، عمل برأي روبير بادنتر وقدّم إلى الجمعية الوطنية مشروع قانون بإلغاء عقوبة الإعدام.

– نعم، لكنْ كان ذلك في زمن الحرب. أما اليوم، فلم تعد فرنسا في حالة حرب.

– لا، رسميّاً ليست في حالة حرب، لكنها تتدخّل في دول يهدّد فيها الإرهاب حياة الفرنسيّين. ينتشر أكثر من عشرة آلاف جندي فرنسي في عدّة دول أفريقية. وقد لبّت فرنسا طلب المساعدة من بعض الدول وأرسلت فرقاً من جيشها إلى مالي وأفريقيا الوسطى وساحل العاج والتشاد

وجيبوتي وبوركينا فاسو، وهي تشارك منذ فترة في التحالف الذي يقصف القواعد التابعة لتنظيم "الدولة الإسلامية"، فألقت القنابل على غرب العراق وشرق سوريا. وهذا يعني أنها بطريقة ما في حالة حرب حتى وإن كانت حقيقة حرباً من نوع جديد. ولاحظي، إنّ فرنسا وسياستها هما ما استهدفهما عملياً الإرهابيون في الاعتداء على الفندق والمطعم الإيطالي في واغادوغو في ١٧ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٦، الذي سقط فيه ثلاثون قتيلاً من ضمنهم عزيزتنا ليلى علوي. وفرنسا أيضاً هي التي كانت مستهدفة في اعتداء ١٣ آذار/مارس عام ٢٠١٦ على شاطئ "غران بسام" في جنوب شرق أبيدجان، الذي أودى بحياة ١٦ شخصاً منهم أربعة فرنسيين.

- لكن لا، ليست فرنسا في حالة حرب! إنها خائفة وحسب، لكنها لا تخوض حرباً! والآن سأطرح عليك سؤالاً حسّاساً. هل المقاتلون الفلسطينيون هم أيضاً إرهابيّون؟

- في نظر دولة قائمة مثل دولة إسرائيل، كلّ الذين يعترضون بالقوة المسلحة على الاحتلال والاستيطان في بعض الأراضي إرهابيون، أي أناس هدفهم الوحيد في هذا

السياق هو قتل اليهود. وهذا ردّ فعل ينسجم مع منطق دولة تحتلّ بعض الأراضي التي ضمّتها بعد "حرب الأيام الستة" في حزيران/يونيو عام ١٩٦٧. وأذكّرك أيضاً بأنه في عام ١٩٩١ اتّهمت كل من سوريا وإسرائيل الأخرى بأنها "دولة إرهابيّة". ولنقل إنه بدلاً من قبول التفاوض من أجل العيش بسلام، يطبّق الأقوى دوماً ما تسمّى "سياسة الأمر الواقع" ويعدّ كل الذين يناضلون من أجل استعادة أراضيهم "إرهابيّين".

– لكن عمليّاً لماذا؟

– لأن دولة إسرائيل لا تعترف بفلسطين، كما أدرج بعض الفلسطينيين في وثيقتهم عبارة "القضاء على دولة إسرائيل"، لكنّ فلسطينيين آخرين رفضوا هذا البند ووافقوا على التفأوض مع إسرائيل. إلا أن هذا لم يحقّق شيئاً ملموساً للشعب الفلسطيني. ففي نظر إسرائيل كلُّ الفلسطينيين الذين يناضلون من أجل استعادة الأراضي التي تحتلّها هم إرهابيّون. وبناءً عليه لا تعترف الدولة الإسرائيلية بشرعية نضال الفلسطينيين. والجدير بالذكر أنّ بعض الفلسطينيين قد لجأ في سبعينيات القرن الماضي إلى العنف ومارس ما

تسمّى أعمالاً إرهابية بغية فرض الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني. خطفوا طائرات بغية "إخراج القضية الفلسطينية إلى العلن وإيصالها إلى الرأي العام الغربي" بحسب ما صرّح أحد المسؤولين الفلسطينيين.

- أخبرني ما جرى.

- في الخامس من أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٢ احتجز بعض الفلسطينيّين بعض الرياضيين الإسرائيليّين المشاركين في الألعاب الأولمبية الصيفية في ميونيخ كرهائن. وكانت هذه المجموعة الفلسطينية تنتمي إلى منظمة أيلول/سبتمبر الأسود، نسبة إلى المجزرة التي تعرّض لها الفلسطينيون في الأردن في أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٠. وقد قتل في الاعتداء أحد عشر رياضيّاً من الفريق الإسرائيلي وشرطي ألماني، كما سقط خمسة من الفلسطينيين الثمانية. ثمّ تخلّى الفلسطينيون عن هذه الوسائل التي أساءت إلى قضيتهم، قضية الاستقلال. إلا أن بعضهم، وخصوصاً أولئك الذين يعيشون في غزّة، يرى اليوم أن الطريقة الوحيدة لاستعادة أراضيهم المحتلة هي في تنفيذ هجمات على المدنيين الإسرائيليين. ولذلك ثار بعض الفلسطينيين المقيمين تحت الحصار في غزة في

صيف عام ٢٠١٤ وأطلقوا صواريخ سقطت على جنوب إسرائيل. وهم ينتمون إلى حركة حماس الإسلامية المنفصلة عن السلطة الفلسطينية، التي لا تعتمد نظاماً دينياً. وقد ردّت إسرائيل بأعمال قصف مكثف أدت (بحسب أرقام الأمم المتحدة) إلى مقتل ٢١٠٤ فلسطينياً، بينهم ٤٩٣ ولداً، و٧٠ إسرائيلياً منهم ستة مدنيين.

وفي هذه الدولة يرى السياسيون وقسم من الصحافة أنّ الفلسطينيين ليسوا مقاومين بل إرهابيون. وهناك خلاف في وجهات النظر بشأن هذه النقطة. ففي تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٤ أعلن ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير التحرير الفلسطينية، في خطاب ألقاه في الأمم المتحدة: "أن كل من يدافع عن قضية محقّة ويناضل من أجل حرية بلاده وتحريرها من المجتاحين والمحتلّين والمستعمرين لا يمكن وصفه بالإرهابيّ". ولا تزال السلطة الفلسطينية تؤمن من جهتها بالحوار مع إسرائيل حتى إن لم يُفضِ ذلك بعد إلى أيّ نتيجة.

– هل يعني ذلك، بحسب ما فهمته مما قلته لي قبل قليل، أنّ الإرهاب ليس مقترناً بالإسلام وحده؟

- إن الإرهاب الإسلامي اليوم هو الذي يثير لغطاً لأنه يضرب في كل مكان من العالم تقريباً. وللمزيد من الدقّة يجب أن نذكّر بأن الأقليات المسلمة، وخصوصاً في بورما والهند، قد تعرضت للمجازر. ففي عام ٢٠٠٢ نُفّذت مذابح منظّمة بحقّ المسلمين في منطقة غاجورات في الهند، وفي آذار/مارس عام ٢٠١٣ في بورما (حيث يمثّلون نسبة أربعة في المئة من عدد السكان البالغ ٥٥ مليون نسمة). وفي الثاني من آذار/مارس عام ٢٠١٤ هاجم بعض الاستقلاليين الويغور مسافرين في محطة "كون منغ" في الصين وقتلوا ٢٩ شخصاً، لكن ما قلتِه صحيح، فليس كل الإرهابيين في التاريخ من أتباع الإسلام.

- وماذا عن جماعة حركة حماس، هل هم مقاومون أم إرهابيون؟

- كما قلتُ لكِ، حركة حماس في غزّة إسلامية الطابع. وهم فلسطينيون يقاومون باسم الإسلام، ولا يعدّون أنفسهم إرهابيين، لكن أكرّر عليكِ ليس كل الفلسطينيين إسلاميّي النزعة. حتى إن بعضهم مسيحي، والبعض علماني، والبعض الآخر ملحد، إلخ. قد لا نوافق على طرائقهم في النضال،

لكن لا يمكن أن نغفل أن أهل غزّة يعيشون تحت الحصار وما من سبب يجعلهم يتقبّلون تنامي المستوطنات. وهم يتوسَّلون الإسلام مرجعية محترمة، ولذلك يقاومون "باسم الإسلام".

– ولماذا لا تتذكّر إسرائيل الحقبة التي كان اليهود ينفذون فيها الاعتداءات على الإنكليز؟

– بمجرّد أن ترفض دولة إسرائيل الاعتراف بعدالة القضية الفلسطينية، فهي تنزل بمقاتليها حِرْم الإرهاب بغية تجريد نشاطهم من أيّ شرعية.

– وماذا تعني كلمة "حرم"؟

– إنها إدانة وحكم مبرم. فإنزال الحرم بشخص ما هو طريقة للعنه ووصمه بالعار ولعزله.

– كم هذا قاسٍ! وماذا عن الأماكن الأخرى؟

– في نيجيريا أسس أحدهم منظمة همجيّة تحت اسم "بوكو حرام"، التي تعني حرفياً "الكتاب المحرَّم"، وهي تتصرّف باسم الإسلام! وهي التي احتجزت في ١٤ نيسان/أبريل عام ٢٠١٤، ٢٧٦ رهينة من طالبات الثانوية في شيبوك، وباعت بعضهن عبدات لغايات جنسية. وتقدّر

منظمة العفو الدولية عدد ضحايا هذه المجموعة الإرهابية بأكثر من أربعة آلاف ضحية، كما أنّ بوكو حرام خطفت بالإجمال أكثر من ألفَيْ امرأة وفتاة لتغذية تجارة الجنس والرقّ التي تمارسها.

- هل يبيح الإسلام اللجوء إلى الإرهاب؟

- ما من ديانة تبيح قتل الأبرياء، وليس للإسلام الذي تدّعيه منظمة بوكو حرام أيّ علاقة بديانة النبي محمد، التي لم ترِد فيها أي إشارة إلى السماح بخطف الفتيات وبيعهنّ عبدات. لقد شهدت فرنسا حروباً دينية، وخصوصاً في القرن السادس عشر (حوالى عام ١٥٦٣) بين الكاثوليك والبروتستانت، وقد ارتُكبت فيها عدة مجازر بحقّ أبرياء. ويمكن الاطّلاع في بعض كتب التاريخ على رسوم تصوّر أعمال التعذيب التي مارسها البروتستانت بحق الكاثوليك، لكن يمكن أيضاً ذكر عدد من المحارق التي أُحرق فيها غير الكاثوليك في زمن محاكم التفتيش. ما من ديانة تقبل هذا النوع من المجازر، ومع ذلك هي واقع في تاريخ الديانات التوحيدية الثلاث.

ولنعد إلى ما يحدث اليوم. لقد فاق تنظيم الدولة الإسلامية

في العراق والشام (داعش) منظمة بوكو حرام بالفظاعات التي يرتكبها في سوريا والعراق على الأخصّ، كما في دول أخرى. وأساساً أعلنت بوكو حرام الولاء لتنظيم داعش، وبايعت البغدادي، الذي أعلن نفسه عام ٢٠١٤ خليفة على المسلمين، كخليفة "الدولة الإسلامية".

– لكن لماذا أعلن مجرمو كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥ و١٣ تشرين الثاني/نوفمبر انتماءهم إلى الإسلام؟ على ما أذكر، صرخ قتلة صحافيّي مجلّة **شارلي إيبدو**: "لقد ثأرنا للنبي" فيما كان قتلة باتاكلان يهتفون: "الله أكبر"...

– هذا بمثابة توقيعهم. هم يزعمون العمل على نشر الإسلام في العالم، وهو إسلام لا يعرفون منه شيئاً في الحقيقة، لكنهم لُقِّنوا ما يكفي لتلاوة آية ما من القرآن يبرّرون بها أعمالهم ويبايعون بها البغدادي. ويطمح هذا الرجل، السجين السابق في العراق، إلى إقامة دولة منظّمة تستند إلى الشريعة.

– ما هي الشريعة؟

– الشريعة هي مجموعة من القواعد والسُّنن التي على المجتمع المسلم تطبيقها، مثل قطع يد السارق مثلاً أو رجم

المرأة المتهمة بالدعارة.

- وما هو هدف البغدادي؟

- هو يريد "إحياء أمّة الله"، مع استعداده لقطع رؤوس من يعدّهم "كفرة" ويعرض ذلك أمام كاميرات المسكونة لكي يثير الرعب في مختلف أرجاء العالم. وهدفه الأسمى فرض هيمنة المذهب السنّي (أي فريق من المسلمين) في كل البلاد العربية والإسلامية.

- ولماذا يقتل الأبرياء؟

- يسعى مقاتلو داعش المنتشرون على الجبهة في سوريا أو في العراق أو في بعض الدول الأوروبية إلى إبادة المهرطقين، معتقدين أنهم كلّما قتلوا كفرةً اقتربوا من دخول الجنّة!

- وما المقصود بالكافر؟

- هو شخص لا يؤمن بالله وينكر النظرية التي تقوم عليها كل ديانة، أي الإيمان والعقيدة المطلقة.

- ولماذا يُقتل أولئك الذين لا يؤمنون؟

- إرضاءً لله!

- لكن الله لا يبيح التنكيل بالأبرياء؟

- ليس المهرطقون والكفّار أبرياء في نظر الجهاديين.
فقد عوقب جماعة مجلّة **شارلي إيبدو** بالموت بذريعة التجديف، أي لأنهم "أهانوا" النبيّ، كما أنّ الشباب الذين كانوا في مسرح باتاكلان عوقبوا بسبب طريقة حياتهم باعتبار أنّها منحطّة. وفي هذا الباب هم يُعدّون أعداء الإسلام. وبناءً عليه، بما أنه يجب نشر الإسلام في كل أنحاء العالم، فإنه يجب القضاء على من يمكن أن يمثّلوا عائقاً في وجه انتشاره.

- ولماذا يرحّبون بالموت؟

- ليس فقط أنهم يتقبّلون التضحية بأنفسهم بل هم متحمّسون لها، ففي نظرهم أنّ الحياة الدنيا هنا ليست صالحة، بل الحياة الحقيقية هي التي وعدهم بها الله، حياة العالم الآخر، تلك التي يتمتعون فيها إلى ما لا نهاية بالخيرات الموعودة في الجنة. والموت في نظرهم هو الوسيلة الوحيدة التي تنقلهم لدخول الجنة. إنها طريقة سريعة وفعّالة. ولذلك لا يخافون ولا يتردّدون. فالموت رغبتهم، وهو رغبة مطلقة فينقادون للمشيئة الإلهية.

- وكيف يصل بهم الأمر إلى هذا الحدّ؟

- قال أحدهم: "إن الذين لم يجدوا معنى لحياتهم يفتشون عن معنى لموتهم". فهناك الكثير من العوامل التي تتضافر فتؤدّي بشابٍ ما أو بصبيّة إلى هذا الانحراف، وليس بإمكان الشرطة ولا أهل هؤلاء الشباب استباق كارثة من هذا النوع. ولحسن الحظّ أنْ ليس كل الشباب الذين لا يجدون معنى لحياتهم ينخرطون في الجهاد. والأكثر عرضة منهم هم الذين يعانون اضطراباً في شخصيتهم فيقبلون "تغيير حياتهم" عبر رسائل على الإنترنت تزداد تنوّعاً وفعاليّة، يجتذبهم شيء ما يفتنهم ويدغدغ أحلامهم، قد يكون إما التعرّف إلى الإيمان الديني، وإما الإعجاب بهؤلاء "الأبطال" الذين يناضلون من أجل قضية، كما أنّ هناك حياة هؤلاء الشباب اليومية التي غالباً ما تكون محدودة ليس فيها ما يلفت، وفي إحباطهم هذا ينقادون إلى الجنون الجهادي، حيث يحسّون أنهم فرضوا أنفسهم وأنهم بنوا كياناً لهم. وفي أوروبا، حيث يعيشون، أو في الدول العربية التي تواجه الكثير من المشاكل الاقتصادية، ليس في متناول هؤلاء الشباب أيّ صورة مثالية عن الحياة، وإذّاك يتطلّعون إلى مكان آخر. إنهم عملياً يفتشون على نحو أساسيّ عن

"ملاذً" حيث يشعرون بكينونتهم و"بالسلام". بعضهم يرى في الانخراط في الجهاد طريقة لضمان "الترقّي الاجتماعي" ولبلوغ "وضع مشروع"، وبعبارة أخرى لاكتساب هوية معلومة ومنتِجة، كما يظنّون أنهم يعوّضون من الفشل الاجتماعيّ (المدرسيّ أو المهنيّ أو العائليّ) إذا ما التزموا خياراً "عظيماً وسامياً"، خيار "نشر الإسلام" عبر القتال باسم الله وفي سبيل الله.

– أيمكن أن توضح لي ذلك أكثر؟

– هم على نحو عام شباب من أوساط مسلمة لا يزالون في مرحلة المراهقة، ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من عمرهم.

– ماذا؟ في الخامسة والعشرين؟

– نعم، فأزمة المراهقة قد تطول عند البعض. والأمر يأتي في لحظة مفصلية عند الشباب، فهناك الغرائز الجنسية والرغبة في الحصول على اعتراف محيطهم بهم، وقد يتّخذ المثال نموذج قائد زمرة أو كبير عائلة يحلّ مكان الأب الغائب أو الضعيف غالباً.

آل البيت

إضافة إلى ذلك، وبمعزل عن الدعاية المضخّمة، يتباهى البعض "بالانتماء إلى آل البيت"، أي إلى بيت الله حيث تسود رحمة الله ويحسّ المؤمن أنه في حالة تامّة من السلام الروحي، أي مع الإسلام. ومن جهة أخرى هناك إيحاء بإمكانية بلوغ "عين الطهارة" عبر أفعال التضحية بالذات هذه. وبناءً عليه فإن كل الذين استُشهدوا وقاتلوا في سبيل الله يصبحون على صلة ببيت الله وينعمون بالطهارة.

ويستند هذا النهج وهذه الوعود إلى استشهادات بالآيات القرآنية وبالحديث النبوي وصولاً إلى إقناع أولئك الذين يفتّشون عن طريق الخلاص في مجتمع وظروف لا تفسح لهم أي مكان ولا أي فرصة عملياً للخروج منها.

وهكذا نجد أن بعض الفتية يرهّبون أخواتهم وذلك بمباركة من الأمهات. ويكون ذلك مع دخول مرحلة الرجولة، حين يصبح من المفروض أن يكون المرء رجلاً حقيقيّاً وقوياً ومتسلّطاً وبحاجة إلى إبهار الآخرين الأصغر منه. وقد يشجّع هذا على الانخراط في الإتّجار بالمخدرات

والدخل المالي السهل، أو التردّد على المساجد، حيث تثير اهتمامه الخطب الداعية إلى الجهاد. وتُفتن بعض النسوة بهؤلاء الإرهابيين العتيدين، بهؤلاء "الأبطال الممجّدين"، هؤلاء الناس الذين يتهيّأون لكي يبلغوا الشهرة وتلمع أسماؤهم في سماء وسائل الإعلام. من قبل كان البعض يلفتون الأنظار بالانحراف إلى الجريمة. كانوا "قادة زمر"، "صُلباً" لا يخشون السجن. أما اليوم، فهم يلفتون الانتباه عبر سلوكهم طريق الجهاد، وهي وسيلة لبلوغ مصافّ "الأبطال" وفي أفضل الأحوال مصافّ "الشهداء".

– هل يمكن أن تتوسّع أكثر في الشرح؟

– بالنسبة إلى بعض الجهاديين ليس الموت نهاية بحدّ ذاته، بل بداية أمرٍ آخر مختلف يساعدهم على تحقيق حياة أكثر طهراً تتناسب مع القيم الواردة في القرآن وفي أحاديث النبيّ. فيعيشون عندها في عالم مثاليّ أبدي ومنذور كلّياً للفضيلة. وبعبارة أخرى ما عادوا يتحملون العالم الذي يعيشون فيه، العالم الفاسد في نظرهم، الذي لا يمكن أن يضمن لهم حياة سليمة وطاهرة، فيتوقون إلى العيش في عالم آخر يحظون فيه بالموقع والاعتراف، ولا يعبأون إن كان

الموت هو ثمن هذا الاعتراف.

- لكن لا ينضمّ كل المراهقين الذين يمرّون بأزمات إلى داعش.

- صحيح! لكن يجب أن نأخذ في الاعتبار النشاط الدعائي عبر الإنترنت. تصوّري أن تنظيم داعش ينشر شهريّاً أكثر من ألف وثيقة على الانترنت (إضافة إلى أكثر من ٤٦٠٠٠ حساب على تويتر). وغالباً ما يُعرض على أشرطة الفيديو هذه عن الحياة اليومية أولادٌ يلعبون ونساء محجبات يبدون سعيدات. وفجأة تبرز المعركة على الكفّار والآثمين والمهرطقين. وهذا يُثبت لهؤلاء الشبّان الذين يعيشون في أوروبا أن هناك حياة أخرى ممكنة، وأنّ هذه الحياة مكرَّسة لله. وهذه الصور مدروسة بإتقان وفيها قوّة إبهار واجتذاب في ما يشبه نوعاً ما تلك الدعايات التي يصبح فيها الرجل "سوبرمان"، فيستحقّ عندها امتلاك سيارة فائقة الفخامة. وفي ذلك لعب على الشعارات والصور المبتذلة التي توقظ في الأفراد أضعف الغرائز المكبوتة، وسرعان ما ينتقلون إلى التنفيذ في الخفاء عن محيطهم.

- ولماذا لا تغلق الحكومة حسابات تويتر هذه؟

- لا أعرف إن كان هذا ممكناً، فنحن نعيش في ظلّ نظام ديمقراطي، ولا يمكن الحكومة أن تغلق بين ليلة وضحاها حسابات تويتر أو سائر التطبيقات على الانترنت.

- وهل يكفي هذا للانتقال إلى التنفيذ؟

- كلا، فهناك عدّة عوامل مؤثرة كما قلت لكِ، فما يحضّهم على التطرّف هو بؤس الحياة التي يعيشونها في أوروبا أو المغرب أو الشرق الأوسط، في دول تتلاشى فيها القيم، وبلدان فقدت الأمل وسُدّت في وجهها الآفاق.

- هل تقصد الدول التي تفتقر إلى المثال في حياتها؟

- نعم، ففي مراحل سابقة كان هناك الحلم بمجتمع حرّ وأخويّ، مزدهر وعادل، وهو ما عُهِد في خطابات الأحزاب السياسية المعروفة باليسارية، لكنها كلها باءت بالفشل. واليوم بات هناك المزيد من الشبيبة في أوروبا الذين يتجاوبون مع خطاب اليمين المتطرّف. وقد تبدّدت الحلام والطوباوية. وهم على قلّة عددهم يمثّلون خطراً على المجتمع، لكونهم مستعدّين لخوض أي مغامرة، حتى ليمكن القول إنهم ما عادوا يؤمنون ببعض القيم مثل التضامن والإنسانية والعدالة، إلخ.

- وما هي الطوباوية؟

- الطوباوية هي مثال، مشروع يبدو صعب التحقّق، خياليّ وغير واقعي. هي في الغالب سراب ووهم.

- وهل يقدّم إليهم داعش طوباوية ما؟

- الأصح القول إن داعش يعدهم بإعطاء حياتهم معنى، وبالعيش بطريقة محترمة وفق الشريعة والفضيلة في عالم طاهر خالٍ من كل فساد وقوي، في عالم مثاليّ. كما أن موقع المرأة محدّد وفق مبادئ تراعي نرجسية الجهاديين. فتعدّ المرأة أدنى قيمة من الرجل تدين له بالطاعة وبتلبية رغباته. ومن جهة أخرى إذا سقط الجهادي في معركة يُعدّ شهيداً والله هو من يستقبله في الجنة، على أساس أنه رجل شجاع وبطل. وهذا الخطاب مدروس جيداً وله مفعوله!

- ما لا أفهمه هو انخراط فتيات وشابات في الجهاد مع أنهنّ يعرفن تمام المعرفة أن حياة المرأة بحسب الشريعة أدنى قيمة من حياة الرجل.

- في زمن النبيّ لم تشارك أيّ امرأة قطّ في المعارك إلى جانب العسكر. بالطبع، في معركة بدر (التي وقعت في ١٧ آذار/مارس عام ٦٢٤، وهي أول معركة انتصر فيها النبي

على قبيلة قريش التي كانت قد دفعته إلى الهجرة إلى يثرب، المدينة المنوّرة) أبدت بعض النسوة رغبة في المشاركة في الحرب، إلا أن النبيّ رفض رفضاً قاطعاً مشاركتهنّ في هذه الحرب. واليوم هناك تجاهل لرسالة النبي محمد وحكمته، وليس فقط أنه يُسمح للمرأة بالمشاركة في الجهاد، بل تُشجَّع على قتل أناسٍ أبرياء، كما يستغلّ قادة الجهاد بعضهنّ جنسيّاً، ويقال لها "هذا هو الإسلام" وهي تصدّق، والتي تتمرّد منهنّ تعاقب بقسوة، حتى إنها تُعدم بتهمة "الخيانة".

- لماذا إذاً ينضمّ بعض النسوة إلى داعش؟

- هذا سرّ غريب. يُحجب عنهنّ جزء من الحقيقة، وخصوصاً طريقة معاملتهنّ عندما يدخلن المعترك.

- كيف يمكن التعرّف على المتطوّعين للجهاد؟ وكيف يمكن اكتشافهم قبل أن ينتقلوا إلى الجبهة أو يبدأوا التنفيذ كما حدث مع إرهابيي باريس عام ٢٠١٥؟

- ليس في مظهرهم ما يميّزهم. من قبل كان بعضهم يطلق لحيته ويغيّر طريقة لبسه ويتشدّد في معاملة المرأة، ويجاهر بانتمائه إلى الإسلام... أما اليوم، فقد تغيّر كل شيء، لدرجة أن الأهل أنفسهم لا يحسّون بما يخطّط له، ولا حتى

الشرطة. الأمر صارم ومفاجئ. ففي أحد الأيام تتلقى الأم اتصالاً هاتفياً من ابنتها المفترض أن تكون في عطلة الثلج لتبلغها فيه أنها أصبحت في سوريا، وأنها وجدت في النهاية طريقها. هذا هو الأمر وغالباً ما يجري بهذه الطريقة.

- إذاً لا بدّ أنّ هناك دوافع سرّية لا أحد يكتشفها؟

- ليس الذين يذهبون إلى القتال مجانين ولا عدميّين بعكس ما يقال غالباً في الصحافة الغربية.

- ما معنى عدميّ؟

- العدمية هي نظرة إلى العالم سلبية ويائسة كلّياً. هي عقيدة تنكر الحياة الأخلاقية والقيم والتراتبية. وبحسب ما لاحظ ألبير كامو في كتابه **الإنسان الثائر** *L'Homme révolté* "هي رغبة في الإحباط والإنكار".

- أليس الجهاديون إذاً محبطين كلّياً؟

- هناك شيء ما يتفاعل في أعماق بعض الشباب ووعيهم، ووراء الاعتداءات الإجرامية هناك دوماً رؤية. ما يجب أن نفهمه هو أنه هُمِّش في الدول الأوروبية البعد الروحاني في الحياة. وكثيراً ما تسمعين أنه في البلدان الأوروبية غلبت المادّية على القيم الروحية. ويرى هؤلاء الشباب الذين دخل

بعضهم السجن لارتكابه جنحاً خفيفة، والذين يعيشون في حالة خيبة كبيرة، وغالباً في حالة من الصمت والتهميش، أنه من الأنسب أن يكون الله أكبر من كل شيء. وبناءً على ذلك يتطلّعون إلى إعادة الاعتبار للنظرة القائلة بأن الحياة الدنيا ليست سوى مرحلة نحو الحياة السماوية. فالله هو بداية كل شيء ونهايته. ويعتقد هؤلاء الشباب، في أزمتهم، أنه الكلّي القدرة، وهو الذي يقرّر مصائرنا. ويظنّون أنه باستجابتهم لدعوة خليفة "الدولة الإسلامية" إنما يحقّقون المثال المتجسّد في العودة إلى الله. أساساً هناك عبارة يستعملها المسلمون دائماً عندما يريدون تهدئة شخص يمرّ بنوبة عصبية: "استغفر الله!" ما يعني: "لا فائدة من توتّرك، فإذا عدت إلى الله فهو القادر على حلّ مشكلتك". وهم يعنون بذلك أنّ البشر "إزاء الله صغار جداً، ثمّ إن الله غفورٌ رحيم".

– هم إذاً يعودون إلى الوراء؟

– ليس تماماً. هم لا يعودون إلى الوراء، بل كما قال رينه شار: "يتراجعون تحفّزاً لما بعد"، فينتقلون بذلك من الزمن الدنيوي إلى الخلود الأبديّ. أقلّه هناك ليسوا بحاجة

إلى التفكير، لأن اليقين المطلق يخلّصهم من الشكّ والقلق. وفي كلام الله حلّ لكلّ الأمور. هناك أناس لا يعانون أيّ مشكلة خاصّة، ويعملون ويكسبون معيشتهم، وليسوا جانحين، وقد تخلّوا عن كل شيء للانضمام إلى داعش، معتقدين أنهم بهذه المبادرة المفاجئة لمحيطهم، يضمنون حياة مجيدة لأنهم سيصبحون جند الله. ولهذه الغاية يرضون بممارسة العنف.

- شاهدت أفلام فيديو يعلّمون فيها الأولاد كيف يطلقون النار على "الأعداء"...

- نعم، كلنا شاهدنا هذه المشاهد المرعبة، علماً أن النبي رفض على الإطلاق إشراك الأولاد في الحروب. فمن أجل المشاركة في معركة بدر كذب بعض المراهقين بشأن عمرهم، إلا أن النبيّ اكتشف أمرهم وأعادهم إلى منازلهم.

- فلنخرج بخلاصة لو سمحت، فقد اختلط عليّ الأمر! مَنْ هو الإرهابيّ؟

- هو رجل يقاتل من أجل الترهيب، لكن هناك عدّة أشكال من العنف الإرهابيّ. وهذا ما يجب أن نحدّده، فليست أعمال العنف كلها من نوع الإرهاب. فهناك العنف

السياسي الذي يأتي لخدمة قضايا قد لا تكون شرعيتها ثابتة. وهناك العنف الذي يمارَس باسم ديانة معينة. وفي كلتا الحالتين يقوم الإرهاب على نشر الرعب عبر استهداف أماكن عامة يسقط فيها أبرياء، كما يمكن استهداف شخصية معينة مثل وزير أو نقابيّ أو رئيس دولة أو مفكّر أو مكان أو معلَم أو رمز. والهدف من ذلك نشر الهلع والفوضى. وبهذا التصرّف يُضرب العقد الاجتماعي الذي بموجبه تتوافق جماعات متنوّعة على العيش معاً. وهذا على نحو ما خروج من سياق التمدّن ومن إطار القانون والحقّ.

الإرهابيون هم أفراد هدفهم ترهيب السكان. وهم يلجأون إلى هذه الوسيلة لأنهم مدفوعون بأفكار محدّدة تماماً بشأن ماهية الخير وماهية الشرّ، لدرجة أنهم يدمّرون أناساً لا يعرفونهم ولم يؤذوهم بأي شكل.

- هل هم مجانين؟

- كلا، فالمجنون هو الذي لا يكون مسؤولاً عمّا يفعله. والحال أن الإرهابيين أفراد يتمتّعون بالوعي وقد جرى إعدادهم على يد اختصاصيّين لكي يقتلوا ويُقتَلوا. وهم مطّلعون تماماً على ما يجب أن يفعلوه. وأحياناً لا

يقال لهم كل شيء ويكون الرهان على توقهم إلى الخضوع للأوامر.

- ألا يخافون؟

- كلا، وهنا مكمن قوّتهم. ففي الحروب على نحو عام يتواجه الخصوم ويقاتل العسكر من كلا الطرفين دفاعاً عن حياتهم. واليوم مع الجهاديين تغيّر وجه الحرب، فعسكر الجهاد لا يدافع بالضرورة عن أرضٍ أو ممتلكات، وليس لحياتهم قيمة في نظرهم، وهذا ما يصعِّب الانتصار عليهم.

- ولماذا يقبلون أن يموتوا مع قتلهم الآخرين؟

- كل كائن يتمتّع "بغريزة الحياة"، التي تسمّى أيضاً "غريزة الصمود في الحياة"، أي التعبير عن الهاجس الطبيعي "بالنجاة بالنفس". ويحكى أيضاً عن غريزة البقاء، وهي غريزة مشتركة بين الإنسان والحيوان. أما الإرهابيون الذين يفجّرون أنفسهم وسط الحشود، فقد قبلوا إحلال "غريزة الموت" مكان "غريزة الحياة".

- وكيف يمكن ذلك؟

- هناك اختصّاصيّون يحكون لهم قصصاً لا تستند إلى المنطق بل إلى التلاعب بعقولهم فتصبح طيِّعةً لتنفيذ كل أمر

يصدر إليهم.

- أعطني بعض الأمثلة.

- تُستعمل كلمات تتناسب مع تطلّعاتهم، مثل الجهاد والشهادة والجنّة والثواب العظيم... وندخل هنا في الحقل الديني، وأحياناً بالإيمان يسهل الانتقال إلى الجانب الآخر من الحياة، فيتقبل هؤلاء الإرهابيون فكرة أنهم يقومون بالجهاد، ويخوضون الحرب على الكفّار، على أولئك الذين لا يؤمنون بإلههم، وأنهم إذا ما ضحّوا بحياتهم فسيدخلون الجنة مباشرةً، حيث تنتظرهم حوريّات وحياة أفضل بألف مرة من تلك التي يعيشونها في هذا العالم. ثمّ هناك تلك الصور لأبطال مدجّجين بالسلاح تُنشر على الانترنت فيُفتَنون بها... وهؤلاء الرجال المسلحون إلى أقصى حدّ، الأقوياء والعظماء، هم رمز الرجولة الحقّة.

- يا لَلغرابة! وماذا عن البنات، ما المكافأة المتوقّعة لهنّ؟

- سؤالك في مكانه، لأنّ هناك تصوّراً بأنّ الرجال وحدهم يجتذبهم الجهاد والشهادة، علماً أن ثلث الجهاديين هم من النساء الشابات، فيما لا النبيّ ولا صحابته، كما

أوضحت لكِ قبل قليل، وافقوا على مشاركة النساء في الحروب. لا النساء ولا الأولاد بطبيعة الحال. والحال أنّ تنظيم داعش، كما تعلمين، يدرّب أولاداً على القتل، ويجنّد النساء ليتصرّف بهنّ كما يحلو له.

- وما الذي تكسبه صبيّة ما من خوض الحرب المقدّسة؟

- أقدّر أنه دخول الجنة، لكنّ الإسلامي المتطرّف يحتقر المرأة، حتى إنه لا يتكلّم عنها. ستصبح شهيدة وفي ذهنه أن هذا كثير بما يكفي!

- وماذا يعني الاستشهاد؟

- الاستشهاد هو الموت من أجل قضية، أو مثال، وهذا يستحقّ مكافأة يقدّرها الله. فقد ورد في القرآن: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

- أوَليس في هذا ما هو صحيح؟

- في نظر المؤمن، رجلاً كان أو امرأة، ليس أن هذا صحيح وحسب بل إنه مسلَّمة لا جدل فيها! والأمر الأساسيّ هو أن هؤلاء الرجال والنساء يؤمنون بقصة الشهادة هذه،

لكن عند ذلك، عندما ينفصلون عن الواقع الذي نعرفه، لا يبقون منتمين إلى عالمنا. وفي نظرهم أن الحياة الأرضية حياة عابرة تافهة، ولذلك يتقبّلون الموت بهذه السهولة. وهذا ما يجعلهم خطيرين. لأن الموت من هذا المنظور نوع من الكماليّة.

– وما الكماليّة؟

– هي تحقيق هدف ما على نحو تامّ وناجز. ومن يبلغ هذه الحالة عبر الجهاد يحسّ بغبطة لا حدود لها لكونها تُفضي إلى الموت الذي يفتح طريق الجنة.

– وما الذي يمكن فعله لتجنّب التقاء هؤلاء الناس؟

– عادة يُطلب من الأولاد أن يبقوا على حذر، لكن ما المقصود بالحذر؟ فالناس الذين كانوا في مسرح باتاكلان في تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٥ لحضور الحفلة الموسيقية لم يكن يخطر في بالهم أنهم سيلقون فيه مصرعهم. فعنصر المفاجأة هو نوع من القوة. ولا يمكن ضمان الأمن مئة في المئة. هناك العمل البديهي الذي تقوم به الشرطة، وهو ضروريّ ومهمّ جداً، إنما هناك أيضاً التربية على المدى الطويل التي يجب عدم إهمالها على الأخصّ. فعلى المدارس

أن تُدخل في برامجها مادة مكافحة العنصرية، التي غالباً ما تكون في أساس التشدّد والتعصّب، وكلاهما يترجَم في الواقع عبر ممارسة الشرّ المطلق المتمثّل في قتل الأبرياء اعتباطيّاً وفي نشر الرعب. ويجوز القول إن النظام التربوي قد فشل في مهمّته هذه.

– هل يعني ذلك أن التعليم لم يكن كافياً لكي يمنع تطوّر الإرهاب في فرنسا؟

– ربما، لكن هل من حلّ آخر؟

– ما أفهمه هو أنها حرب خاسرة سلفاً...

– هذه الحرب يجب أن تخاض على عدّة مستويات. فالمفروض هو قصف قواعد هذا الجيش وتدمير معسكرات التدريب التابعة له والأماكن التي يخزّن فيها أسلحته وتجفيف مصادر تمويله أيضاً، لكن لن يكون لكل هذا تأثير كبير في الخلايا النائمة في أوروبا أو في أماكن أخرى، أو في تلك المؤلفة من أفراد باعوا نفوسهم وينتظرون تلقّي الأوامر للانتقال إلى التنفيذ. وهؤلاء هم الأشدّ خطورة. وأيضاً يجب بذل جهود جبّارة من أجل فهم هذه الظاهرة جيّداً. فكما قال الجنرال ديغول لا يجوز الذهاب إلى "الشرق المعقّد بأفكار

بسيطة". والحال أننا في أوروبا، حيث لا يشعر هؤلاء الشبان بالاندماج ولا يرون أنّ هذه الأرض هي وطنهم. وليس لدى بعضهم شعور بالانتماء إلى هذه البلاد.

- لأيّ أسباب؟

- هذا نتيجة عدم الاهتمام وعدم وجود سياسة خاصّة وإهمال فادح على مدى عشرات السنوات، التي بقيت في خلالها شعوب بأكملها من رجال ونساء مهاجرين أو مولودين لمهاجرين عرضةً للإهمال والإنكار والعزل في مساكن موبوءة من دون أي آفاق مستقبلية.

- ما المقصود بـ"موبوءة".

- إنها أراضٍ مسمومة بمساكن لا تصلح لتفتّح الفرد. وهي مناطق تخرج أحياناً عن سلطة القانون وتفضّل الشرطة عدم دخولها.

- بذلك تكون معظم الضواحي موبوءة.

- نعم هذا صحيح، فبعض الشباب يقول اليوم: "أراد الغرب أن يلغينا من الوجود، فإما أن نندمج وإما أن نقبل البقاء على قارعة الطريق". وفي هذا الجو ظهر الخطاب الإسلامي الذي يدّعي "إنقاذهم"، ومن يجنّدهم ينجح

ببراعته في أن يبرهن لهؤلاء الناس أن هناك خياراً آخر، ذاك الذي يقود إلى الطهارة الكليّة، خيار عالم يسوسه كلام الله. فينزل عليهم هذا الخطاب المُحيل إلى اليقين الإلهي كأنه نعمة حقيقية، إذ يسمعون كلاماً يطمئنهم ويفتح أمامهم أبواباً موصدة في حاضرٍ مسدود بإحكام إما بالفشل المدرسي، وإما بالعنصرية في التوظيف والإقصاء الشائع، وبنوع خاص بسبب انعدام التعليم الذي لم يتمكّن الأهل من توفيره لهم، إلخ. وفي مواجهة الطرح الإسلامي يضطرب مسار العلمانية، فينخرط البعض في الجهاد منساقين لبعض المبررات. والأشد خطورة منهم هم أولئك الذين يعودون من ساحات القتال في سوريا والعراق ويبدأون بالاستعداد من دون إثارة الشبهات لينتقلوا إلى التنفيذ يوم يتبلّغون أمر المهمّة. وهنا يكمن الخطر. وينبغي أن يُضاف إلى هذا المشهد عجز الأهل وعدم تمتّعهم بالمؤهّلات اللازمة لكي يزرعوا في نفوس أولادهم قيم الإنسانية والسلام. فهم يتحمّلون جزءاً من المسؤولية حتى وإن لم يكن من المفروض إرهاقهم أكثر.

- وما الذي يزيد من خطورة العائدين من ساحة المعركة؟

- لأنهم يعملون في الخفاء في أماكن محدّدة ولا يمكن اكتشافهم. فليس هناك ما يميّز حضورهم، إذ إنهم يذوبون في الحشود ولا يمكن بالتالي تحديدهم وتوقيفهم. لا تنسَيْ أنّ فرنسا دولة قانون، ولا يمكن للشرطة أن تتعامل مع الشعب على نحو استبدادي بذريعة وجود خطر. وحتى في حالة الطوارئ يجب احترام القانون.

- هل تعطيني مثلاً؟

- هل سمعت شيئاً عن "الخليفة الأبيض"؟ هو سوريّ جاء إلى فرنسا في سبعينيّات القرن الماضي هرباً من أعمال القمع التي كانت تمارسه في بلده على المعارضين. وكان هذا الرجل الذي سمّى نفسه أوليفييه عضواً في الإخوان المسلمين، وهم جماعة تأسست في مصر عام ١٩٢٨، ومن طموحاتها العمل على نشر الإسلام في كل أنحاء العالم. وقد حصل على الجنسية الفرنسية، وشيئاً فشيئاً أصبح المرشد الروحي للكثير من المتقدّمين للجهاد، ومنهم من ارتكب جرائم فظيعة في فرنسا مثل محمد مراح. وكان لهذا الرجل أفكاره عن توسّع الإسلام، إذ إنّ الإخوان المسلمين يعتقدون بأنّ الإسلام سيسود المعمورة كلها. وعندما داهمت الشرطة

منزله لم تعثر فيه إلا على بندقية صيد قديمة غير مصرَّح بها. فحكم عليه بالسجن سبعة أشهر. وبات من المعلوم أنّ الشرطة اشتبهت بأنه هو مرشد بعض الإرهابيين ومجنّدهم في فرنسا، لكن لا يمكن القضاء أن يتّخذ أي إجراء بحقه ما لم يُضبط في حالة مخالفة للقانون وحاملاً السلاح.

– أوضح لي كيف يتوصّل الاختصاصيّون الذين تتحدث عنهم إلى التحكم في هؤلاء الناس.

– هناك عدة حلقات وطرائق تتقاطع في ما بينها لكي تصنِّع إرهابيّاً أو كاميكازاً أو شهيداً.

– كاميكاز، ماذا يعني ذلك؟

– استُعملت كلمة "كاميكاز" في الحرب العالمية الثانية. فالكاميكاز اليابانيون كانوا جنوداً تابعين لوحدات حربية يخضعون للأوامر ولا يهاجمون سوى أهداف عسكرية محدّدة، من دون أن يكون هناك عمليات انتحارية. فالموت كان جزءاً من مهمتهم وعليهم تقبّله. وهذا الحالة الفريدة انتهت بانتهاء الحرب. لم يكونوا إذاً مدنيين مجنّدين لقضية سياسيّة أو دينية ويتعمّدون استهداف مدنيين آخرين. ولذلك لا يُعدّ الجهاديون كاميكازاً. إن مفهوم "التضحية بالذات"

هذا ليس رائجاً في العالم المتحضّر، وبعبارة أخرى في كل مكان تسوده غريزة البقاء. وحتى الإسلام في الأساس يدين بحزم الانتحار حتى من أجل قضية "سامية".

- كما في حالة الشهيد؟

- هنا يدخل الأمر في نطاق الدين. فمن يقتل من أجل قضية، على يد العدو، هو شهيد قاتَلَ في سبيل الله، وقد وعده الله بالجنّة. ويجب أن يكون مؤمناً وإلا فلا يصلح الأمر.

- أيجب أن يكون مسلماً؟

- يدعو الإسلام إلى ما يُسمّى الجهاد في حالات استثنائية، كأن يتعرّض المؤمنون لاعتداء من جيش غريب. هذا ما حدث إبّان الحروب الصليبية عندما شنّ المسيحيون حملة لمحاربة المسلمين. فالمؤمن الذي سقط بضربات المسيحيين عدّ شهيداً. والقرآن واضح بالنسبة إلى هذه النقطة، فمن يضحِّ بحياته في القتال في سبيل الله لا يمُت، بل له الحياة الأبدية في الجنّة.

- هل أراد إرهابيو مسرح باتاكلان الذهاب إلى الجنة؟

- على الأرجح، إلا أنهم ارتكبوا جرائم يحرّمها الإسلام، وهذا مذكور في إحدى الآيات من دون أي لبس:

﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. إذاً هم بكل بساطة مجرمون قتلة لا شهداء ولا مسلمون. وينبغي أيضاً الاستشهاد بحديث للنبي أعطى فيه التوجيهات التالية للمقاتلين الذين كانوا على أهبة الاستعداد لغزوة مؤتة، حيث كان عليهم مواجهة أعداء الإسلام: "اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، أو امْرَأَةً، وَلا كَبِيرًا فَانِيًا، وَلا راهباً بِصَوْمَعَة"

- إلا أنني سمعت أناساً يقولون إن كلّ هذا العنف من الإسلام، أهذا صحيح؟

- في كلّ ديانة شحنة عنف. فليس في الإيمان منطق ولذلك تغلب فيه العاطفة دوماً، وعبر التاريخ نعرف تماماً أن هناك بشراً قتلوا باسم الله. ما من ديانة واحدة تمكنت من تفادي خوض الحروب باسمه. ففي القرن السادس عشر نكّل الكاثوليك أيضاً في فرنسا بالبروتستانت وقتلوهم. وفي ما يتعلق بالإسلام يبقى كل شيء رهن قراءة النصوص الدينية وتأويلها. ففي بدايات الإسلام، آخر ديانة وقعت معارك

وحروب وأعمال عنف رداً على الذين رفضوا الرسالة التي حملها النبيّ محمد. وقد ورد في إحدى الآيات: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾. إلا أنّ هذا الأمر صدر في زمن وظروف محدّدة. جرى ذلك في المدينة المنوّرة في آخر أيام النبيّ.

– لدينا هنا تناقض! فمن جهة تذكر آية تدين الذي يقتل بريئاً، ومن جهة أخرى هناك هذه الآية التي تقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ...﴾!

– في الآية الأولى بُعد شامل وأبديّ، أما الثانية، فأتت في زمن وظروف الحرب، الحرب التي شنّها غير المؤمنين على النبي في بداية رسالته.

– أمن هذا ينبع العنف؟

– كلا، هو لا يتولّد مباشرة منه، إلا أن الجهاديين عندما يقتلون الأبرياء في باريس وبيروت وتونس وسوريا والعراق يكونون مقتنعين بأن معركتهم مشروعة، كما في القرن السابع الميلادي، في الفترة التي دُفع فيها النبيّ إلى الهجرة إلى المدينة لينجو من "الْمُشْرِكِين"، الذين أرادوا قتله. يجعلونهم يصدّقون أننا لا نزال نعيش اليوم في القرن

السابع، أو للمزيد من الدقة أن ظروف ذلك الزمن لا تزال قائمة حتى اليوم...

- لكنهم يدركون تماماً أننا أصبحنا في القرن الحادي والعشرين!

- صحيح، لكنّ فكرهم لم يعد يعمل مثل فكرنا، وما يجب أن نفهمه هو أن هؤلاء الناس لا يعدّون حياتهم الدنيا قيمة سامية، فالأساس بالنسبة إليهم هو حياة الآخرة. وهم على قناعة تامّة بأن الله هو الذي يقرِّر كل شيء، فكل شيء مقدَّر سلفاً، وإذا وجب عليهم الموت فهم يتقبّلونه من دون اعتراض ولا خوف، لأنهم متيقّنون من أن الإنسان ليس إلّا أداة بيد الله الكلّي القدرة.

- وهل تعتقد أنهم مؤمنون فعلاً؟

- لا أدري شيئاً عن ذلك، لكن لو لم يكونوا مؤمنين فلماذا يقدمون على ما يفعلونه؟ فهم ينفّذون أمراً يظنون أنه نازل من السماء حتى إن صدر عن أناسٍ يديرونهم ويتلاعبون بهم. وهم ليسوا مجانين، بل أناس يظنّون أنهم اهتدَوا أخيراً إلى النور الذي انتظروه زمناً طويلاً. وكيف يمكن أن نفسّر أن شبّاناً أو صبايا أوروبيّين، متعلمين جيّداً، وما هم بجانحين ولا

مدمني مخدّرات، يسلكون طريق الجهاد، مفاجئين الجميع بدءاً بأهلهم الذين لم يخطر لهم أنّ أولادهم سيتحوّلون سرّاً إلى الإيمان قبل أن ينضموا إلى القوات الجهادية في سوريا أو العراق؟

- يا له من نورٍ يهديهم إلى الموت!

- في رأيهم أن ما يقومون به ليس شرّاً، فهم ينفّذون أوامر وليدة نظرة إلى العالم رسَّخها في أذهانهم محترفو الجهاد. وهم ينفّذون مهمة يعدّونها "خلاصية"، أي ستخلِّص أرواحهم.

- وما هو الجهاد الحقيقي في النهاية؟

- الجهاد في زمن السلم هو الجهد الذي يبذله كل إنسان على نفسه لكي يصلحها فيكون مسلماً صالحاً، أي مدعوّاً إلى فعل الخير ومكافحة الظلم والشرّ. وهذا جهد يفرضه القرآن. وفي زمن الحرب يعني الجهاد محاربة من يعتدي على الإسلام. إنه القتال في سبيل الله، والنضال من أجل نشر الرسالة السماوية، وفي هذه الحالة يكون المؤمن مستعداً للتضحية بحياته من أجل توسّع المثال الإلهي على الأرض. لكن لا أحد اليوم يهاجم الإسلام على نحو جدّي،

بل بالعكس، الإسلام في حالة توسّع دائم حتى وإن تكن "صحيفته سيّئة" كما يُقال.

- ماذا يفعلون إذاً لكي يزرعوا في أذهان هؤلاء الشباب أننا في حالة حرب؟

- يعملون على إقناعهم بأننا لا نزال في زمن نزول الرسالة الإسلامية كديانة سوف تخلّص البشرية. ولا تزال تلك الفسحة الزمنية مفتوحة ولم تقفل بعد. وما يجري هو أنّ المتلاعبين بعقول هؤلاء الشباب يعتمدون وللمفارقة التقنيات والطرائق الأكثر حداثة وتطوّراً في القرن الحادي والعشرين. وكما تعلمين هم يوظّفون في سبيل ذلك آلة دعائية ذات فعالية رهيبة، من أفلام فيديو عن المعارك إلى تطريق لا متناهٍ على بعض الرسائل الصوتية، إلى الصور الصاعقة والإنشاد المتواصل لبعض الآيات القرآنية، ومشاهد من الحياة اليومية التي يسودها ظاهريّاً جوّ من الأخوّة العظيمة، وكل هذا يمارس سحره على "المستهلك"، الذي يفقد في ذلك حسّه النقدي ويعتنق بلا مقاومة الرسالة الموجّهة. والهدف هو تعطيل كل حرّية فكرية عند هؤلاء الشباب. فلا يجوز أن يُعمِلوا فكرهم، بل عليهم أن يتفانوا ويستسلموا

ويوافقوا على تنفيذ كل ما يطلب منهم فعله. وهناك بعض المذاهب التي تعتمد الطرائق نفسها من أجل "السيطرة" على أتباعها.

- هذا نوع من التسويق!

- بالضبط! فكل شيء مدروس علميّاً بغية التحكّم في عقول الناس والسيطرة عليهم على هذا النحو. وهذا ما يعرف بالـ"توجيه العقائديّ"، وبه يلقّنون عدداً من المفاهيم التي لشدّة تكرارها تنتهي بإقناعهم بأن الحقيقة موجودة ها هنا لا في مكان آخر. إنها عملية تربوية!

- نعم لكن كيف يفسَّر تصرّف ذلك المراهق في مارسيليا، التلميذ الجيّد والحسن التربية والمتحدّر من أسرة تركيّة ذات أصول كرديّة، الذي خرج فجأة يوم الإثنين الواقع فيه ١١ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٦ حاملاً ساطوراً لكي "يقتل يهوداً"؟

- هذا الفتى الذي لا يكاد يبلغ السادسة عشرة من عمره تعرّف على تنظيم "الدولة الإسلامية" عبر الإنترنت. ولم ينتبه أحد إلى تطرّفه، لا أهله ولا معلّموه الذين تفاعل معهم. كان قد اطّلع صدفة على الدعاية الجهادية المنشورة على

الانترنت. وفي السجن لم يُبدِ ندماً على فعلته، بل بالعكس جاهر بتأييده "الدولة الإسلامية"، مضيفاً أنّ "ما يأسف له هو أنّ ضحيته لم يمُت"! وبالتأكيد هناك عجز إزاء هذا النوع من الانحرافات. وممّا لا شك فيه أن الدعاية الجهادية قد عبّأته بكره اليهود. فما الذي جعله يرتكب فعلته؟ إنّ لمن الصعب مكافحة هذا النوع من الإرهاب...

- كيف السبيل إلى مواجهة هذه الدعاية؟

- للنجاح في ذلك ينبغي تطهير الانترنت، وهذا مستحيل عملياً. وكما سبق أن قلت لك عن التويتر، في الدولة الديمقراطية لا يمكن قطع سَيل الانترنت فقط لأنها الوسيلة التي عبرها تنتشر الدعاية الإجرامية. ويبقى عمل الأهل، فعليهم التيقّظ جيداً ومراقبة ما يتلقّاه أولادهم من صور على الشبكة. وأذكِّر مرة أخرى بأنّ من الصعب البقاء على هذه اليقظة، ولذلك من الضروري إقامة علاقات وثيقة ودائمة مع الأولاد، ومساعدتهم وتحذيرهم وتخصيص الوقت للتحدث إليهم وشرح الأمور ومنحهم الثقة وجعلهم يتحلّون بالمسؤوليّة. وهذا مهمّ فعلاً، وخصوصاً في مرحلة أزمة المراهقة. يضاف إلى ذلك دور الجهاز التعليمي

ووسائل الإعلام.

- علمت من مطالعتي على أحد المواقع الإلكترونية أن العداء للسامية كان منتشراً جداً في أوساط الإرهابيين العاملين باسم الإسلام. فكيف السبيل إلى مكافحة هذا النوع من العنصرية؟

- بعد محاولة القتل التي حصلت في مارسيليا في كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٦، طلب بعض الحاخامين من اليهود الامتناع عن اعتمار "الكيبا"، مخافة التعرّف عليهم وتعرّضهم للاعتداء. لكنّ المشكلة أعمق من ذلك، فالكره الذي يتعرض له اليهود ليس حديث العهد. فلمناهضة السامية في فرنسا تاريخ طويل. يجب التمييز بين مناهضة السامية التاريخية في أوروبا (لعلّك سمعت عن قضية درايفوس، وعن تهمة الخيانة التي وجّهت إلى ضابط يهودي في الجيش الفرنسي، الذي انقسم في بداية القرن العشرين عندما أصبحت فرنسا اثنتين، إحداهما مناهضة بشدّة للسامية، وأخرى مناهضة للعنصرية، التي حمل رايتها إميل زولا، ولعلّك سمعت أيضاً عن مأساة إبادة اليهود على يد النازيين) والشعور المعادي لليهود المتجدّد مع الحركة الجهادية. ففي زمن النبي

محمد، نشب بين اليهود والإسلام صراع جوهري، بعدما أخذ المسلمون على يهود المدينة المنورة، بين عامي ٦٢٢ و٦٣٢، أنهم خانوا عهد الذمة الذي عقدوه مع الرسول. وما ترسَّب من تلك الفترة في أذهان الجهاديين أو مرشديهم أن اليهود خانوا الرسول، وهي الفكرة التي بعثت بها اليوم التيارات الأصولية.

- ما يعني بعبارة أخرى أن المشكلة قائمة منذ نشأة الإسلام؟

- نعم، لكن هذا لم يمنع اليهود والمسلمين من التعايش معاً في الأندلس في تفاهم تام، حتى القرن الخامس عشر، أي حتى بداية عصر محاكم التفتيش. وإذّاك هربوا إلى المغرب وبلدان مسلمة أخرى حيث عاشوا معاً من دون مشاكل تذكر، وذلك حتى إعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

- هل يعاقب القانون في فرنسا على التحريض على الكره العنصري...

- نعم. هنالك قوانين تحظّر العنصرية ومناهضة السامية، لكن الأمر لا يفلّ عزيمة الذين يكرهون اليهود. فالدعاية الإسلامية تشدّد كثيراً على "كره اليهود". وقد اعتدى مرّاح

ونمّوش وكوليبالي على أشخاص يهود لأنهم يعدّونهم مسؤولين عن مأساة المسلمين في فلسطين وإسرائيل.

- كيف يمكن مواجهة هذه الدعاية؟

- على المسلمين واليهود أن يتفقوا على خوض هذا النضال معاً، لأن كره اليهود وكره المسلمين آفتان متشابهتان. وعليهم التخطيط للعمل في العمق، وبالتأكيد ليس هذا بالأمر السهل. فالتربية وحدها لا تكفي، بل يتطلّب الأمر المطالعة والاهتمام بثقافة الآخرين والانفتاح على العالم، والتحلّي بالفضول وتنمية روح المعرفة والخيال في نفوس الأولاد، ومحادثتهم وإبعادهم عن الصخب الذي يهمل القيم الإنسانية، وتحذيرهم من الصور الآسرة والمخادعة، ونسف الأحكام المسبّقة. يجب البقاء في حالة تيقظ دائم لأن دعاية الكراهية قد تكون أحياناً أقوى وأكثر إغراءً من كلام الأهل.

- بابا، سأطرح عليك سؤالاً قد يغيظك، لأنني أعرف أن الكثير من الناس يطرحونه عليك. قل لي ما إذا كان علينا أن نخاف من الإسلام. ثمّ لماذا يتزايد هنا في أوروبا عدد الناس الذين يخافون من الإسلام؟

- أولاً، عن أي إسلام تتحدثين؟

- وهل هناك أكثر من إسلام واحد؟

- كلا، إنما هناك عدّة تأويلات للنصوص التي تقوم عليها هذه الديانة. وكما تعلمين فإن الإسلام ديانة موحّدة، تؤمن بإله واحد أوحد وكلّي القدرة يُدعى الله، وهي استوحَت من الديانتين الموحّدتين الأخريين، اليهودية والمسيحية. وعلى غرار كل ديانة أخرى، تعرَّض الإسلام باستمرار لتأثير التفسيرات المتعارضة وحتى المتناقضة. هناك الإسلام إذاً، وهناك أولئك الذين يحرّفونه إلى العنف لأن قراءتهم لم تبلغ دقائق الفكر الإسلامي وعمقه. وقد حمّلوا الإسلام ما لم يقل به، كما أنّ هناك الذين يعيشونه بسلام في جوّ من الرصانة والاعتدال، لكنّ هؤلاء لا يُسمع صوتهم في وسائل الإعلام، وهو ما يجعل أهل العنف في الإسلام وحدهم يظهرون فيها.

- لكن الناس لا يميّزون بين تفسير وآخر لتلك النصوص. وفي رأيهم أنّ الإسلام مخيف لأن بعض الأشخاص الذين يعلنون انتماءهم إليه لا يتردّدون في قتل من يسمّونهم كفرة. وفي هذا ما يبعث الخوف فعلاً، أليس كذلك؟

- لا يمكن اختزال الإسلام بصور القتل المروّعة هذه، باسم محمد. يحقّ لك طبعاً أن تغضبي. لكن اعرفي شيئاً

واحداً: منذ ثلاثين سنة وضحايا هذا الإسلام العنيف هم المسلمون أنفسهم.

- إذاً لماذا لا يرفع أي قائد مسلم صوته لإدانة هؤلاء المجرمين؟

- لأنه ليس في الإسلام السنّي أي إمام أو مرجعية حاضرة. وبناءً عليه فإنّ المؤمن مسؤول مباشرة أمام الله، وما من أحد مخوّل الكلام باسم جميع المسلمين. أمّا الشيعة (أتباع علي صهر النبيّ)، المذهب الآخر الكبير في الإسلام، فوضعوا تراتبية خاصة بهم، فعندهم الملالي، وآيات الله، والمفتون... الخ. ثمّ إنه بعد اعتداءات ١٧ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥ واعتداءات ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه، عبّر معظم المسلمين عن روعهم، رافضين القتل باسم الإسلام، لكن للأسف هم ليسوا منتظمين ليعبّروا جماهيرياً عن رفضهم تلك الفظائع.

هنالك انزعاج واضح في المجتمع المسلم، وكلّما ارتُكب اعتداء باسم الإسلام شعر المؤمنون بالاستياء، لكونهم يدركون ما في ذلك من تشويه لصورتهم. وطبعاً دان الكثير من علماء الدين اعتداءات ٧ و٩ كانون الثاني/يناير، ومنهم

شيخ الأزهر. وحتى إن فقهاء المغرب أصدروا فتوى تدين بشدّة اعتداءات ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر، لكن كما قلت لك إنّ سلطتهم لا توازي سلطة البابا.

- لماذا لا يتَّحد مسلمو فرنسا؟

- هذا ناتج من عدم وجود رئيس أو قائد في الإسلام السنّي (الذي يمثّل الغالبية). وليس هناك سياسة تنظيمية موحَّدة. إضافةً إلى أنّ الإسلام السنّي منقسم بين الكثير من الشعائر والتيارات ما يُعوّق التنظيم وتعيين ممثّل يتحدث باسم كلّ المسلمين. فهناك خصومات وخلافات في الرأي كما كان عليه الوضع بعد وفاة النبيّ محمد.

- يخيّل لي أنه بعد اعتداءات ٧ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥ التي استهدفت مكاتب تحرير مجلّة **شارلي إيبدو** *Charlie Hebdo* ومتجر هيبر كاشيه في باريس، ومن بعدها مسرح الباتاكلان في تشرين الثاني/نوفمبر، شعر مسلمو فرنسا بالاستياء...

- طبعاً، فهذه الأعمال الوحشية صدمت وخضّت جميع الناس، وأصاب تأثيرها رجالاً ونساءً في كلّ مكان، لأن ضحايا مجرمي **شارلي** كانوا مجرد صحافيين ورسامين

وشعراء ومهرّجين، لا أحقاد عندهم ولا أحكام مسبّقة. كان عملهم يقضي بالتهكّم على كلّ شيء ومن جميع الناس. ومن جهة أخرى بات من المعلوم أن بعض الأشخاص ابتهجوا لتلك المجازر. ولا شكّ أن هذا النوع من الناس، على قلّته، موجود. وعندما وقفت فرنسا كلها غداة الاعتداءات دقيقة صمت إكراماً للضحايا رفض بعض الطلاب في سبعين مدرسة ومعهداً المشاركة. وبالطبع هذا رقم بسيط جداً عندما نعلم أنّ في فرنسا ٦٤٠٠٠ مدرسة، لكن يجب عدم إهمال هذه الظاهرة.

من جهة أخرى، لم يعد التعصّب العنصري ضدّ المسلمين مجرّد أمر عاديّ بل انتشر على نطاق واسع في فرنسا وأوروبا. فبحسب المرصد الوطني لمكافحة "رهاب الإسلام"، ازدادت الأعمال المعادية للمسلمين (اعتداءات على نساء محجّبات، تدنيس أضرحة أو أماكن العبادة، شتائم وتهديدات، الخ.) بنسبة ٥٠٠ في المئة في الفصل الأول من عام ٢٠١٥ مقارنةً بالفترة نفسها من عام ٢٠١٤.

– بالعودة إلى ما حصل في ٧ كانون الثاني/يناير، كيف تفسّر أنه فيما كانت فرنسا كلّها تحت وقع الصدمة، كان

بعض شباب الضواحي يقولون: "أنا لست شارلي، لقد جنَوا على أنفسهم، ما كان عليهم سوى تفادي التعرّض للنبيّ"؟

- نعم، لقد نقلت الصحافة شهادات عبّر فيها بعض المسلمين عن "إعجابهم وحتى عن انبهارهم" بقتلة فريق مجلّة **شارلي**. وقد صدر في مواجهة الشعار الشهير "أنا شارلي" شعار مضاد "أنا لست شارلي، أنا كواشي وكوليبالي" (أسماء القتَلة). وحتى جان ماري لوبان، الرئيس الفخري للجبهة الوطنية، صرّح قائلاً: "أنا لست شارلي".

وفي هذا الخصوص صرّح جمال جناوي، المعلّم والناطق الرسمي باسم "المجمع الديمقراطي لأشكال التنوّع" (Collectif démocrate des couleurs de la diversité)، لأحد صحافيي جريدة **لو فيغارو** *Le Figaro* (١٤ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥): "هم لا يقدّمون أي شيء على الإطلاق. يعتمل في نفوسهم شعور فظيع بالكراهية. يجب إقصاؤهم عن هذه البيئة إلى أن يبدأوا بقبول الآخرين وبالتالي أنفسهم. هم بائسون ومستعدّون للّحاق بأول بطل أو خطيب...". هؤلاء منحهم نشر الرسوم الكاريكاتورية

للنبي محمد فرصةً للاحتجاج والمجاهرة بهويتهم المسلمة.

لهذا السبب لا أكفّ عن الدعوة إلى عمل في العمق. كانوا عرضة للتهميش والتجاهل والإهمال لدرجة أنهم انغلقوا على أنفسهم داخل مجتمع صغير ضيّق له قوانينه وقواعده الخاصة. هناك أحياء لا تدخلها الشرطة، معتبرة ذلك خطيراً جداً، وخصوصاً أنّ الأمر لن يجدي نفعاً.

– ما الذي يعرفه هؤلاء الناس عن الإسلام؟

– لا شيء أو بالكاد. أجزاء من آيات قرآنية أو شعارات لتبرير التزامهم، لكن عندما سمعوا في صيف عام ٢٠١٤ الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند، ورئيس وزرائه مانويل فالس يؤيدان إسرائيل من دون أي تحفّظ فيما الجيش الإسرائيلي يقصف غزّة على نحو متواصل، لا بدّ أن كراهيتهم ازدادت حدّة. وأساساً، بعد أحداث ٧ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥، سمعنا طلاباً في إحدى ثانويات الضواحي يقولون: "لماذا نقف دقيقة صمت على أنفس يهود فيما لم يقف أحد دقيقة صمت هذا الصيف من أجل الفلسطينيين!". هذه مشكلة حقيقية فعلاً وتعمّق في نفوس هؤلاء الشباب انعدام الثقة في الجمهورية. وبعضهم متضامن

مع القضية الفلسطينية كما يؤازر بعض المواطنين اليهود إسرائيل. نعم، يخالج هؤلاء الشباب شعور قوي بالظلم، فهم يرون أن الضحايا الفلسطينيين لا يحظون بالتعاطف نفسه الذي يُخصّ به الجنود الإسرائيليّون. إنه الكيل بمكيالين. فهذا الصراع والطريقة التي يتناوله بها السياسيون ووسائل الإعلام، يؤديان دوراً مهماً في القطيعة الواقعة بين هؤلاء الشباب وسائر المجتمع الفرنسي. أقلّه، هذا ما يقولونه عند مساءلتهم. وبعضهم شديد التأثر بخطاب الكاتب الهزلي ديودونيه المناهض لإسرائيل، وقد تابع أشرطته المصورة أكثر من مليون شخص.

– أعيد طرح السؤال عليك: هل يجب أن نخاف من الإسلام؟

– نعم، يجب أن نخاف من أولئك الذين يستخدمون هذه الديانة ساعين لبسط سلطتهم وسيطرتهم على الآخرين. نعم، يمثّل الجهاديون خطراً. أمّا عن عديدهم، فقد صرّح وزير الداخلية الفرنسي في ٣ شباط/فبراير عام ٢٠١٦: "يبلغ عدد الأفراد الأصوليين ٨٢٥٠ شخصاً". إنه العدد المحتمل للمتطوّعين المحتملين للجهاد. طبعاً هناك إحصاء

بهؤلاء الأشخاص، لكن فرنسا لا تملك إمكانات مراقبتهم باستمرار. ومن هؤلاء هناك تقريباً خمسمئة شخص عادوا من سوريا. فهل عادوا تائبين أم هم "قنابل موقوتة"؟ هذا ما لا يمكن الجزم به... وقد أُدخل بعضهم السجن في انتظار إحالتهم أمام القضاء، لكن هذا لن يحلّ المشكلة، بل إن سجنهم سيعمّق من أصوليتهم.

- إذن، هنالك مبرّر فعلي للخوف...

- أنت تدركين الآن أنه في فرنسا على الأخصّ قد يكون الخوف من الإسلام والمسلمين مبرَّراً. إنما هنالك سبب آخر. فبموجب الشريعة التي تمارسها بعض الدول المسلمة لا تتمتّع المرأة بالحقوق نفسها المعطاة للرجل، إذ تسمح بتعدّد الزوجات وكذلك بالطلاق، وحتى بالرجم. وعند التوريث لا تحصل الفتاة إلا على نصف حصة الصبي... إلخ. إن هذه الرؤية الظلامية والأصولية إلى العالم "مبرّرة" في فكر حركة الإخوان المسلمين التي تأسست في مصر عام ١٩٢٨ على يد أستاذ يُدعى حسن البنّا. يرى هذا الرجل أن "الإسلام هو النظام الأسمى"، وبالتالي تنبغي أسلمة المجتمع والاستيلاء على السلطة السياسية وإنشاء "دولة

إسلامية" تطبّق الشريعة وتكافح "مبادئ الديموقراطية كحرية الفرد، العلمانية، إلخ.".

- أيمكننا القول إن جهاديي اليوم يستندون إلى فكر تلك الجماعة؟

- حول هذه النقطة أحيلك إلى كتاب *L'Islam expliqué aux enfants (et à leurs parents)* (**الإسلام كما نشرحه لأولادنا ولآبائهم**) حيث حاولت شرح كلّ ذلك من دون الموافقة عليه بطبيعة الحال. عندما يرى الأوروبيون واقع النساء في بعض الدول يُصدمون. عندما يعلمون أن يد السارق تُقطع بموجب الشريعة، وأن المرأة المتّهمة بالخيانة تُرجَم، يُصابون بالذعر. عندما يكتشفون أن المحكوم بالإعدام يُقطع رأسه لارتكابه جرائم تخالف القانون العام أو لاتهامه بالردّة، يستنكرون صراحة هذا الإسلام.

- ما المقصود بالردّة؟

- المرتدّ هو المؤمن الذي ينكر دينه علناً ويصرّح بإلحاده مؤكداً أن الله غير موجود. في الغرب يدخل هذا الموقف في إطار "حرية المعتقد" التي لا يعترف بها أي دستور في أي دولة إسلامية، باستثناء الدستور التونسي الجديد.

- ويُعاقب بالإعدام؟

- نعم. إن الإسلام، كما هو مطبَّق في بعض الدول العربية، يعدّ الردّة جريمة. في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٥ حُكم على أشرف فياض، الشاعر الفلسطيني المقيم في السعودية، بالإعدام بتهمة الكفر. وعبثاً كانت مناداته ببراءته والقول بأنه ليس ملحداً إذ يبقيه القضاء السجن. ونأمل بفعل التحرّك الدولي ألا يقطع رأس هذا الشاعر.

- أنت تتفهَّم إذن عدم رغبة الأوروبيين في إقامة هذا الإسلام في بلادهم؟ هذا ما تقوله "رابطة الشمال" في إيطاليا، التي يرى مناصروها أن هناك ما يدعو إلى القلق، وأنه يجب بذل كلّ الجهود الممكنة لقمع المسلمين من إيطاليا... حتى إن أحد الصحافيين في فرنسا تحدث عن ضرورة "ترحيلهم"! فما رأيك؟

- إنّ "رابطة الشمال" في إيطاليا، على غرار الجبهة الوطنية في فرنسا أو بيغيدا (وطنيون أوروبيون ضدّ أسلمة الغرب)، الحزب الوطني الديموقراطي في ألمانيا، وكذلك حزب الحرية النمساوي، حزب فلامز بيلانغ في بلجيكا، أو حزب النازية الجديدة "أوب" في اليونان، إلخ.، هي أحزاب

يمينية متطرفة همّها الأساسي محاربة الهجرة، وخصوصاً من الدول المسلمة. وهي تزرع الخوف في نفوس الناس من دون أن توضح سبب عيش المهاجرين هنا، مسلمين أو لا. وهي تسعى بذلك إلى كسب أصوات الناخبين، ولذلك تحقّق هذه الأحزاب نتائج مهمة في الانتخابات. يمكننا القول إنها تحصد أكثر من ربع الأصوات في أوروبا، وهذا بفضل "رهاب الإسلام" الذي تغذّيه دعاية هذه الأحزاب.

– كيف وصلت أوروبا إلى هذه الحالة؟

– إنه الخوف! الخوف مع الجهل والأحكام المسبّقة والعنصرية، وفوق ذلك الاعتداءات العشوائية التي تقتل المدنيين الأبرياء. فالإرهاب يزرع الرعب ويبقيه قائماً في كل مكان. وقد أدرك السياسيّون أنهم للفوز في الانتخابات عليهم الانخراط في لعبة التخويف. حتى إن بعض الدول كالدانمارك والسويد، المعروفتين باعتمادهما سياسة هجرة جيدة، شهدت تقدّم اليمين المتطرّف بعد رفعه راية الخطر الإسلامي (٢٥ في المئة للحزب الديموقراطي في السويد، و٢١ في المئة في الدانمارك).

– هل هناك أسباب تبرّر هذا الخوف؟

- أنا أتفهّم خوف الشعوب التي تفتقد المعلومات الصحيحة، وخصوصاً عندما لا يكون أمنها مضموناً من جانب المكلفين به. إنما يجب أن نعرف أن إثارة الخوف والقلق أسهل من طمأنة الناس. لقد بدأ هذا الخوف وتضخّم بعد الاعتداءات على مركز التجارة العالمي في نيويورك في ١١ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١، إذ تسبّبت بكارثة مدوّية على مستوى العالم (٣٠٠٠ قتيل). أما في فرنسا، فقد كفى اعتداء مروّع واحد في ١٩ آذار/مارس عام ٢٠١٢ نفَّذه شاب فرنسي من المهاجرين يُدعى محمد مراح، لإلقاء الشبهات على كل مسلمي فرنسا (قتل مراح ثلاثة عسكريين في مونتوبان، وأربعة يهود في تولوز، ثلاثة منهم أولاد). واليوم، بعد اعتداءات عام ٢٠١٥، أصبح من الصعب جداً ترميم صورة الإسلام في فرنسا. وعبثاً كان الكلام على تحريف مبادئه وعلى جهل الإرهابيين، فقد بات الناس يميلون إلى إدانة الإسلام بالإجمال، من دون بذل أيّ جهد لتخطّي المظاهر والأحكام المسبّقة. إنه الواقع. فعشية عيد الميلاد عام ٢٠١٥ هاجم بعض سكان أجاكسيو مسجداً للمسلمين وهتفوا بشعارات عنصرية على

غرار: "ليرحل العرب" وذلك في أثناء عدة تظاهرات مندّدة بالهجرة المغربية إلى كورسيكا. وقد كشفت لجنة مكافحة "رهاب الإسلام" في فرنسا أنه بين تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٥ ونهاية العام نفسه ارتُكب ٢٢٢ عملاً عنصرياً ضدّ المسلمين.

– هل الإرهاب باسم الإسلام هو الذي ولّد هذا الخوف من الإسلام؟

– ليس الخوف وحسب، بل كره الإسلام أيضاً كما يجاهر به مثلاً الكاتب ميشال ويلبك. لقد أصبح التهجّم على هذه الديانة والمؤمنين بها أمراً عادياً جداً.

– الخوف، الكراهية، هناك ما يدعو حقّاً إلى القلق...

– نعم، منذ أن نشرت مجلّة **شارلي إيبدو** عام ٢٠٠٦ رسوماً كاريكاتورية عن النبي محمد بات فريق العمل فيها عرضة للخطر. ففي عام ٢٠١٠ أُحرق مقرّ الصحيفة، وكما تعرفين في ٧ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥ قتل عدد كبير من فريق تحريرها. وقد صرّح القتلة يومها: "ثأرنا للنبي." ففي نظر هؤلاء الناس والقادة الذين يديرونهم ويسيطرون عليهم كانت تلك الرسوم بمثابة جريمة كبرى، جريمة التجديف.

- هل تقصد الرسوم التي نُشرت أولاً في صحيفة دانماركية؟

- نعم، وقد نقلتها من بعد **شارلي إيبدو** وحتى إنها زادت عليها، إن حقّ لي القول...

- ولهذا السبب قتل الإرهابيون ١٢ شخصاً...

- لم يكن المقصود فقط قتل كابو وولينسكي وشارب وكل الآخرين، إنما أيضاً زرع الرعب والتعدّي على حرية الإبداع والكتابة والرسم والغناء، حرية التهكم والنقد والهجاء... أهرقت كل هذه الدماء بسبب روح الفكاهة! بالطبع ما من ديانة تستحسن تناولها بالسخرية، لكن أن يبلغ الأمر حدود القتل...

- إذن أنا لا يحقّ لي، باعتباري فتاة ذات ثقافة مسلمة، أن أسخر أو أتهكّم على الدين؟

- بلى، يحقّ لك ذلك، إنما ليس علناً في بلد مسلم. في أوروبا يحقّ لك التعبير عما تريدين وبالوسائل التي ترتئينها. يمكنك الكتابة والرسم والغناء، إلخ. ولا يحقّ لأيّ كان منعك من ممارسة هذه الحرية. طبعاً هذا لا يمنع أن بعض المتعصبين قد يتسبّبون لك بمشاكل... فحرية التعبير في

فرنسا هي حرية أساسية، وذلك من زمن بعيد، زمن رابليه وفولتير وزولا وغيرهم. إنها سياسة يتميز بها هذا البلد. وليست المجلّات الساخرة بنت الأمس! ولطالما سخرت من الديانات. وقد سبق لمجلّة **شارلي إيبدو** أن نشرت عشرات المرات على غلافاتها رسوماً تتهكم على البابا أحياناً وعلى الحاخامين أحياناً أخرى، وهذه هي الحرية.

- لكن لماذا نُشِرت رسوم تسخر من نبي يتبعه أكثر من مليار مؤمن؟ أليس في إهانة وتحقير المسلمين بهذه الطريقة شيء من الاستفزاز؟

- يمكن اعتبار ذلك استفزازاً غير مستحبّ. وأنا أتفهّم المؤمنين الذين شعروا بالإهانة بسبب التعرّض لنبيّهم، لكننا نعيش في بلد لطالما كان فيه تجديف. لقد تحوّلت فرنسا بلداً علمانياً بعدما ناضلت لإبعاد الدين كيلا يتدخل في الحياة العامة وفي التربية وفي السياسة. فمن قرّر العيش في فرنسا عليه قبول الخضوع لقوانينها ومبادئها وقيمها.

- تقول إن فرنسا بلد علماني، ماذا يعني هذا بالضبط؟

- نعم، منذ عام ١٩٠٥، منذ أن فصل القانون الكنيسة عن الدولة، أصبحت فرنسا بلداً علمانياً. كانت الكنيسة

المسيحية تتباهى بأن "فرنسا ابنة الكنيسة البكر". وفي عام ١٩٠٥ حصلت القطيعة، لكن الدولة هي العلمانية لا المجتمع، إذ يمكن الناس ممارسة الدين الذي يختارونه بكل أمان وحرية، فقط بشرط أن يبقى الدين مثلاً بعيداً عن البرامج التعليمية. والعلمانية لا تعني محاربة الديانات، بل هي مبدأ يحتّم الفصل بين الدين والدولة، وبين العامّ والخاصّ.

لكن بالتأكيد يرى المتعصّبون في العلمانية شكلاً من أشكال الإلحاد. وفي نظرهم أن من يجدّف يصبح كافراً، أي شخصاً يجب نبذه من المجتمع الإسلامي، ويُهدَر دمه. وهي الكلمات نفسها التي استعملها آية الله الخميني عند إصداره فتوى بحقّ سلمان رشدي، الكاتب البريطاني المسلم الهندي الأصل، صاحب كتاب **آيات شيطانية**، وذلك عام ١٩٨٨. وحتى الآن لم يسقط هذا الحكم ولا يزال رشدي مهدّداً. إنه لأمر فظيع أن يكون المرء مهدّداً بالموت لمجرّد نشره رواية!

– في هذه الحالة إذاً نحن أمام الإسلام العنيف؟

– هذا أحد وجوه هذه الديانة. إنما، بحسب القرآن، الله وحده يتكفّل بمن يضلّ من المسلمين. وعلى كلّ ليس الله من يعاقب رشدي! رشدي كتب رواية لا دراسة يسيء فيها إلى

الإسلام. ومع ذلك تحرّض هذه الفتوى على القتل، ولذلك تعرّض أحد مترجمي كتاب رشدي للطعن بالسكين، كما صدرت فتاوى أخرى بحقّ غيره من المثقفين من أصحاب الفكر الحرّ.

- ما هي الفتوى تحديداً؟

- من حيث المبدأ لا يحقّ لأحد في الإسلام السنّي أن ينتحل حقّ إصدار "أمر ديني" بحقّ هذا الشخص أو ذاك، لكنّ الحقيقة أن بعض الفقهاء يسمحون لأنفسهم بالحكم على شخص ما وبإدانته لاعتبارهم أنه "خرج عن جامع الإسلام". والبعض عند الطائفة الشيعية مخوّلون بذلك، كما كانت الحال بالنسبة إلى آية الله الخميني في عهده، فقد قرّر الحكم على رشدي بالموت. الفتوى في النهاية "أمر ديني" لا قضائي ولا شرعي، وعليه لا قيمة لها بتاتاً في نظر دولة القانون.

- ما تقوله فظيع، لكن فلنعُد إلى الأخوين كواشي وإرهابيي ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر. هم فرنسيون وُلدوا في فرنسا من أهل مهاجرين. لماذا تصرّفوا إذاً بهذه الوحشية؟ أفهم ما قلته لي عن عملية تسييرهم، لكن...

– نعم هم فرنسيّون، لكن هل كانوا يشعرون فعلاً بانتمائهم الفرنسي؟ هم أشخاص تُركوا لسبيلهم في سنّ مبكرة، فلم يحظوا بالتربية الملائمة ولا بالمتابعة الدراسية، وهم جانحون دخل بعضهم السجن وخرج منه بعقل فارغ أو بالأحرى ملوءه الحيرة. وبذلك أصبحوا فرائس مثاليين للمجنِّدين للجهاد. تواصلوا في البداية مع شخص يدعى فريد بن ياتو، وهو داعية ذو شخصية كاريزماتية، ولا بدّ أنه تمكّن من استمالتهم. وما من أدنى شكّ في أن هذا الرجل عرف كيف يطوّعهم عقائدياً، وكيف يختار الكلمات المناسبة للتحدث إليهم. وربما تكفّل آخرون بعدها بـ"غسل أدمغتهم" وملئها بالشعارات الإسلامية. وقد أمضى بن ياتو ستّ سنوات في السجن بتهمة "حشد مجموعة من المخرّبين لتأليف جمعية إرهابية". في عام ٢٠٠٨ عدّته محكمة باريس زعيم شبكة تُدعى "بوت-شومون" (Buttes-Chaumont) مهمتها تجنيد شباب للمشاركة في القتال الدائر في العراق. فهو الذي "أعدّ" الأخوين كواشي، ثمّ تولّاهما آخرون وسلّحوهما ودرّبوهما بغية تنفيذ اعتداءات في فرنسا. وبات من المعلوم اليوم أن تنظيم القاعدة في اليمن تبنّى تلك الجرائم، فيما تبنّى تنظيم

داعش اعتداءات ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٥.

– الأخوان كواشي وكذلك كوليبالي، ذاك الذي قتل شرطية وأربعة من اليهود كانوا في متجر هيبر كاشيه، كانوا مسلمين، أليس كذلك؟

– في نظر الغالبية الساحقة من المسلمين هم جهلة ومجرمون استغلوا الإسلام غطاءً لارتكاب فعلتهم القذرة، لكنّ هذا لا ينفع، فبالنسبة إلى غالبية الناس هم مسلمون ونقطة على السطر.

– نعم، إنما لا يمكن أن ننسى أنهم جاؤوا لإعدام من جرؤوا على نشر رسوم النبي محمد الكاريكاتورية الشهيرة. الأمر واضح بالنسبة إليهم، فقد أهين النبي وأرادوا الانتقام له.

– لم يكن من داعٍ لأخذ تلك الرسوم على محمل الجدّ. بالنسبة إلي، كما بالنسبة إلى كلّ مسلم صادق، لا يمكن رسم النبي كاريكاتورياً، فهو روح، روح سامية، لا يمكن تجسيدها برأس قلم. ويجب تقبل فكرة وجود أشخاص آخرين لا يفكرون بهذه الطريقة، وبالتالي لهم الحقّ في أن يتناولوا بالفكاهة ما يعدّه آخرون مقدّساً. وهذا من روح الديموقراطية والحرية. كان من المفترض التعاطي مع تلك

المسألة بلامبالاة. قولي لي بصراحة، عندما تنظرين إلى تلك الرسوم، هل تذكّرك فعلاً بالنبيّ؟ وقد سبق أن سخرت المجلّة نفسها عدة مرّات من المسيح ومن جميع الباباوات والكثير من الحاخامين، ولم يحاول أي كاثوليكي ولا أي يهودي معاقبة هؤلاء الكتّاب والرسامين الساخرين بقتلهم. ثمّ إنني أفهمتك أن فرنسا دولة تقدّس حرية المعتقد وحرية التعبير والكتابة. ولا وجود للرقابة. فمن كان فرنسياً عليه تقبّل هذا القانون. وإن كان فرنسياً ومسلماً، فعليه احترام قوانين الجمهورية. وهذا هو معنى المواطنة، لكنّ الأخوين كواشي وشريكهم كوليبالي تصرفوا كأداة منفّذة لإسلام من صنع مركز الإرهاب الدولي، سواء أكان يُدعى القاعدة أم داعش.

- هل تعرف أن أكثر ما يخيفني كوني فرنسية ذات ثقافة مسلمة هو احتمال قتل الناس في فرنسا بتهمة التجديف. نحن نعيش في بلد ديموقراطي وعلماني، ويحقّ لنا بالتالي نقد الدين.

- نعم، لقد ناضلت فرنسا على مدى عقود قبل أن تتمكن من فرض فصل الدين عن الدولة.

والعلمانية، كما سبق أن قلت لك، هي أيضاً حرية

المعتقد. كل مواطن له الحقّ في الإيمان بالله أو عدم الإيمان به. هذه هي حرية الفكر والرأي. حتى إنّ بإمكانه أن يسخر من الدين من دون أن يدخل السجن... فرسمياً، العلمنة هي "فصل المجتمع المدني عن المجتمع الديني، بحيث لا تمارس الدولة أي سلطة دينية ولا تمارس الكنائس أي سلطة سياسية".

– أي إن العلمنة هي الحرية.

– نعم، في عام ١٩٠٥ وبغية التوصّل إلى فصل الدين عن الدولة، وبالأخصّ تحييد الدين عن التعليم الرسمي، اضطرّ قسم من الشعب الفرنسي إلى النضال. بينما في دول أوروبية أخرى، كإسبانيا وإيطاليا، لم تحصل تلك القطيعة.

– ولا في الدول العربية على ما أتصوّر؟

– الدول العربية لا تعترف بالفرد، أعني أنها تقدّم العشيرة والقبيلة والعائلة على الشخص. عندما يولد الفرد مسلماً، يصبح جزءاً من "دار الإسلام" ولا يحق له الخروج منه. وإذا خرج من هذه الدار، عُدّ كافراً أي مرتداً عن الدين، أي شخصاً أنكر انتماءه وجذوره واستحقّ العقاب. سبق أن قلت لك إن الكافر يُعدّ خائناً ويُعاقب بالقتل.

– ما هو أكثر ما يخيف الإسلاميين والمتعصّبين؟

– حرية التعبير، الشك، حرية المعتقد، خيار الإيمان أو عدم الإيمان. وهذه الحرية مقدّسة، لكن من الواضح أنّ قسماً من مسلمي فرنسا يرفضها. وقد يكون هذا الرفض القاطع هو السبب في رفض البعض اعتناقها. وبالعودة إلى "الرسوم الكاريكاتورية"، فقد نقلت صحيفة **لو فيغارو** *Le Figaro* في ١٥ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥، تلك التصاريح التي أدلى بها أشرف عدلي، أستاذ الفقه في جامعة الأزهر، في القاهرة، بالنسبة إلى اعتداء **شارلي إيبدو**: "يسعى هؤلاء فعلاً إلى المشاكل! أنا آسف للاعتداء الذي تعرّضوا له، لكنّ النبي محمد مقدّس بالنسبة إلينا، لا يمكن التعرّض له بالإهانة. فليمتنعوا عن التذمّر إذا تعرّضوا لإطلاق نار جديد". وأضاف أحد زملائه: "كلما زادت الرسوم المهينة، زادت ردود الفعل المتطرّفة." وفي القدس، دان أيضاً كبير المفتين محمد حسين هذه "الإهانة" التي "جرحت مشاعر حوالى ملياري مسلم عبر العالم".

– فهمت. لكنني أصرّ على سؤالي: أعتقد أنه ما من دولة عربية أو مسلمة تعتمد العلمانية، أليس كذلك؟

- وحدها تركيا علمانية من الناحية الرسمية، وذلك بعدما تولّى مصطفى كمال أتاتورك الحكم عام ١٩٢٤. لكنّ تركيا الحالية، برئاسة إردوغان، تنحو أكثر فأكثر نحو النزعة الإسلامية. وباستثناء تركيا، ما من دولة علمانية بين كل الدول القائمة في العالم المسلم، من المغرب مروراً بأفريقيا وآسيا وصولاً إلى الشرق الأدنى. وحتى البحث في العلمانية، مجرّد البحث، مستحيل. ومن حين إلى آخر يطرح بعض المثقفين في مصر والمغرب أو تونس المشكلة، لكنهم يبقون أقلية. ورفض العلمنة يعني رفض النقد والشك والاعتراض. فالإسلام مقدّس، ولا يُمسّ به.

- أخبرتني قبل أيام أن تونس جرؤت على إقرار دستور استثنائي...

- نعم، بعد ثورة عامي ٢٠١٠ و٢٠١١، وبالرغم من وجود نواب حزب النهضة الإسلامي، أقرَّ البرلمان دستوراً ثورياً بكل معنى الكلمة، وفريداً في نوعه على كلّ حال في العالم العربي والإسلاميّ، لكونه ينصّ على حرية المعتقد والمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة. نعم، هو دستور فريد في نوعه. ويجب الإقرار بأن الرئيس السابق الحبيب

بورقيبة (١٩٠٣–٢٠٠٠) قد مهّد الطريق بفرضه "قانون الأسرة"، الذي يمنح الرجل والمرأة الحقوق نفسها. طبعاً حاول الأصوليون بعدها تغيير قانون الأسرة، لكنهم لم ينجحوا في ذلك، بالرغم من اغتيال أشخاص يخالفونهم الرأي. وأخيراً تعرّضت تونس لاعتداءات إجرامية، منها الهجوم الذي استهدف متحف باردو في آذار/مارس عام ٢٠١٥ والذي أوقع ٢٢ قتيلاً، وأعقبه اعتداء شاب في عملية فرديّة على مجموعة من السيّاح على شاطىء سوسة، موقعاً ٣٩ ضحية، معظمهم بريطانيّون، ثمّ الهجوم الذي استهدف في وسط المدينة حافلة تابعة للحرس الجمهوري في تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٥. وفي ٧ آذار/مارس عام ٢٠١٦، وقع هجوم واسع النطاق استهدف الجيش والشرطة في بنقردان وأوقع ٤٥ قتيلاً، بينهم ٢٨ من المهاجمين. والنتيجة أن بعض الإرهابيين المنتمين إلى تنظيم داعش قتلوا بشراً وعطّلوا اقتصاد هذا البلد الصغير.

– لماذا لم تَحْذُ الدول العربية والمسلمة الأخرى حذو التونسيين؟

– لأنها تخاف شعوبها. فمن الصعب زرع الحداثة في

الذهنيات والسلوكيات، إذ من المعلوم أنّ الحداثة تُقاس أولاً بالموقع المخصّص للمرأة في النظام الاجتماعي، كما أنّ الحداثة هي أيضاً الاعتراف بالفرد، لكن، كما ذكّرتك، تعطى الأولوية في المجتمعات العربية المسلمة للعشيرة والعائلة والقبيلة لا للشخص. من هنا غاب أيّ تطور اجتماعي وجرى التمسّك بالإسلام باعتباره المرجعية المشتركة بين كل الشرائح الاجتماعية، بعدما أصبح مثالاً أخلاقيّاً وثقافة وملاذاً كيانيّاً.

- ماذا عن المغرب؟

- كادت المغرب أن تدرج في الدستور الجديد الصادر عام ٢٠١١ حرية المعتقد، لكنّ حزب العدالة والتنمية (الإسلامي) خاض حرباً لا هوادة فيها اعتراضاً على ذلك. فمنذ تسلّم هذا الحزب الحكم وهو يحاول الحدّ من ممارسة بعض الحريات فارضاً رقابة على بعض الصحف، الأجنبية منها على نحو خاص، وعلى الأفلام.

- منذ مجازر ٧ و٩ كانون الثاني/يناير، ومجزرة ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٥، هل تظاهر غير المتعصّبين من المسلمين تأييداً للحرية؟

- نعم، في ١١ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥، أصدرت مجموعة تضمّ ٦٧ مثقفاً وفناناً وكاتباً وجامعياً من كلّ أنحاء العالم الإسلامي، نداء ورد فيه ما يلي:

> لا بدّ من إجراء بعض الإصلاحات في العالم الإسلامي لمواجهة هذه الحرب (حرب الجهاديين). فالمواطنة والمساواة وحرية المعتقد ودولة القانون وسائر حقوق الإنسان مضادّات ضرورية. (...) ويقتضي الردّ على هذه الحرب الاعتراف والتشديد على الصفة التاريخية لعدد من النصوص التي تتضمّنها السنّة وعلى استحالة تطبيقها، ثمّ استخلاص العبر من ذلك. (...) فهؤلاء المناضلون يتغّذون من نصوص إسلامية تدعو إلى العنف، وهي موجودة عند ديانات أخرى وتدخل في سياق مختلف ومن عصر آخر عفا عليه الزمن. وعلى كل الفعاليات المعنية، بدءاً برجال الدين والسلطات في كل بلد أن تصرّح علناً بأنها لم تعد صالحة وبالية وغير قابلة للتطبيق. ويجب أن يمثّل هذا الموقف بداية لعملية إصلاحية فعلية في مجال الدين في كل بلد، وأبعد من ذلك لوضع التشريعات المناسبة. (...) ويجب تجريم كل

> الخطابات أو المشاريع الرامية إلى نشر أشكال التطرف هذه والكراهية والعنصرية. ويجب ان تكون البرامج المدرسية وبرامج وسائل الإعلام الرسمي، وكذلك خطب المساجد، متوافقة مع المثل العالمية لحرية المعتقد وحقوق الفرد. لا وجود لديانة تسمو على أخرى، فالإنسانية واحدة لا تتجزَّأ.

هذا ما صدر، وربما قلت لي إنه لا يوجد سوى ٦٧ توقيعاً، فاعلمي أنّ العريضة موجودة وسيوقّعها عدد كبير من الناس. وبعد أحداث ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٥ أصدر علماء دين مغاربة فتوى (بمثابة بلاغ) تندّد وتدين بشدّة هذا الإرهاب الذي ليس فقط لا يمتّ إلى الإسلام بصلة، بل إنه أيضاً هو يدنّسه. ومن جهة أخرى، ألقى الملك محمد السادس خطاباً دان فيه التطرّف والأصولية، كما طلب سحب كلّ ما يشجّع على التعصّب وعدم تقبّل الآخر من الكتب المدرسية، لكن من العبث التنديد بالنزعة الإسلامية الإجرامية، إذ يبدو بذلك أن الإسلام هو المطروح على بساط البحث، ومن الصعب إحداث انقلاب في النزعات.

– على ضوء ما شرحته لي هل بالإمكان ممارسة الإسلام

في ظلّ نظام ديموقراطي علماني كفرنسا؟

– الإسلام عقيدة، وبما هو عليه لا يمكن إصلاحه. في المقابل، بإمكان المسلمين التكيّف وتكييف ديانتهم مع أوضاع سياسية متنوّعة الاتجاهات. لذلك إذا ما فُهم الإسلام بطريقة ذكية يمكنه بالتأكيد أن يتماشى تماماً مع الديموقراطية، لكن أشدّد على أن هذا يتطلّب من المسلمين أن يقدموا احترام قوانين الجمهورية على دينهم. وقد جرت بعض المحاولات في هذا السياق، لكننا لا نزال أبعد ما نكون عن تحديد شروط التوصل إلى إسلام هادئ ومطمئن يُمارَس في الدائرة الخاصة ويحترم قوانين البلد... مثلاً، ليس من المقبول أن يرفض رجل يرافق زوجته إلى قسم الطوارئ في المستشفى، أن يكون الطبيب الذي سيعاينها رجلاً. وهذا ما ينطبق على الأهل الذين يمنعون بناتهن من ممارسة الرياضة في المدارس بحجة أنّ الملابس الرياضية تكشف أشكال أجسادهن. كلا، هذا أمر غير مقبول. وليس مقبولاً أيضاً الصلاة في الشارع، لأن ذلك يسبّب إخلالاً بالنظام العام، أو حتى المطالبة بأحواض سباحة غير مختلطة.

– نعم، لكن هل من الممكن إصلاح الإسلام كما يتمنّى

موقّعو العريضة الـ٦٧؟

- كلّ الديانات اضطرت في يوم من الأيام إلى مواجهة هذه المشكلة، إلا أنّ الإسلام يقاوم، علماً أنه إذا ما أعدنا قراءة النصوص التي كُتبت في زمن النبي، أو تلك العائدة إلى عصر التنوير الممتدّ بين القرنين التاسع والثاني عشر، نتبيّن أنه ما من سبب يمنع الإسلام من أن يستعيد مجدداً يوماً ما هذا الفكر وهذا الوضوح وهذا العصر الذهبي، لكن القوى القمعية تعمل بلا كلل مانعة كلّ نقاش يمسّ المسائل الجوهرية، وهذا أمر صحيح تماماً. أعطيك مثلاً. في مصر، نشأ تيار إصلاحي مثّله محمد عبدو (١٨٤٩-١٩٠٥) الذي عمل بالتعاون مع إصلاحي آخر كان أحد فقهاء التحرّر، يُدعى جمال الدين الأفعاني (١٨٣٨-١٨٩٧). حاول كلاهما تحرير النصوص الدينية من أغلال الماضي البالية والمتشدّدة. وكلاهما كان عقلانيّاً، ومما قالا به أنه "إذا حصل تضارب بين المنطق والسنّة، تعطى الأفضلية للمنطق". وقد وضعا حرية الإنسان ومسؤوليته فوق كلّ اعتبار. بعبارة أخرى هما جعلا من الدين إطاراً على الإنسان أن يسعى فيه جاهداً إلى تفسير النصوص بطريقة عاقلة ومسؤولة، أي

بالتكيّف مع الظرف التاريخي الذي يعيش فيه. وبرأيهما هذا يلتقيان مع الفيلسوف الكبير ابن رشد، الذي عاش في القرن الثاني عشر، والذي قال بدوره: "بإمكان العقل البشري أن يبلغ بالمنطق حقيقة الدين". وقد قام فكرهما على عقائد ثلاث هي التالية: ١- التحلّي بالجرأة على التفكير ٢- النظر في الأمور على ما هي عليه ٣- تحقيق حرية الفكر بمحاربة الأفكار المسبقة وبعدم التسليم إلا بالحقيقة.

وقد تأثر بهذين المفكرين إصلاحيّ آخر هو السوري رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥)، لكن بعد استقراره في المملكة العربية السعودية تأثر بطروحات محمد ابن عبد الوهاب الذي دعا إلى تطبيق الشريعة على نحو صارم. وحتى اليوم لا يزال المذهب الوهابيّ هو المسيطر في السعودية وفي معظم دول الخليج. وتلك هي أيضاً إيديولوجيا حركة طالبان التي قد تعود إلى الحكم في أفغانستان.

في تسعينيّات القرن العشرين ألّف كاتب مصري يُدعى نصر حامد أبو زيد (١٩٤٣-٢٠١٠) كتاباً اقترح فيه اعتماد قراءة نقدية للقرآن. حسناً كانت النتيجة أنه طُرد من الجامعة وعدّه علماء الأزهر "كافراً"، أي منبوذاً من الإسلام ومن

"دار الإسلام"، كما أنه حُرِم واستبيحت محاربته وحتى قتله. وفُصل عن زوجته التي أُرغمت على التطلّق منه (لا يحقّ لكافر الزواج بمسلمة). ولو لم تفعل ذلك لعدّت متواطئة معه وبالتالي "كافرة" هي أيضاً، لكنْ تمكّنَ الزوجان في النهاية من الهرب ولجآ إلى هولندا، حيث مات هو بسبب المرض، إنما أيضاً بسبب الغيظ والحزن.

- هل هذا التعصّب ظاهرة حديثة؟

- ليس فعلاً، لكن منذ أن أحيا الإسلام طموحه السياسي، فلنقل منذ الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، عادت المذهبية والتعصّب بقوّة. فآية الله الخميني، قائد الثورة الإيرانية، هو الذي صرّح مع تسلّمه الحكم: "إما أن يكون الإسلام سياسياً أو لا يكون"، لكن بمطالعة تاريخ الإسلام، يجب العودة إلى القرن الثالث عشر لنجد تعبيراً عن هذا النوع من التزمّت. ففي تلك الحقبة أتت القراءة الحرفية للقرآن من الفقيه ابن تيميّة (١٢٦٣-١٣٢٨)، الذي ولد في تركيا وعاصر الفتح المُغولي واضطر إلى اللجوء مع عائلته إلى سوريا. وأعطيك مثلاً عن تعصّبه وتشدّده، مثلاً سيذكّرك بأحداث وقعت أخيراً. ففي عام ١٢٩٣ طالب بإعدام مسيحي بتهمة إهانة

النبي محمد، لكن لحسن الحظّ أن القضاة رفضوا الامتثال له. فالجهاد كما ترين قديم العهد، ولا يعتقدنّ أحدٌ أنه من بدع داعش.

- بالحديث عن داعش، هل فيه قائد أو زعيم يقرّر كل شيء؟

- من المعروف أنه منذ أن ادَّعى البغدادي الخلافة وصرّح بعزمه على نشر الدولة الإسلامية في كلّ أنحاء العالم، نشأت منظمة متطورة جداً تبثّ المواقف على نطاق واسع عبر شبكات التواصل الاجتماعي. ومعظم الضباط الذين يخوضون هذه الحرب تحت إمرة البغدادي هم من قدامى جيش صدام حسين، الذي حلّه الأميركيون عند اجتياحهم العراق عام ٢٠٠٣ وإطاحتهم الديكتاتور العجوز. وقد حصلت هذه "الدولة الإسلامية" المعروفة باسم "داعش" (الدولة الإسلامية في العراق وسوريا) على التمويل من دول ومن أفراد. وعندما دخل مقاتلو داعش العراق استولوا على أموال المصارف وباشروا بيع النفط في السوق السوداء، وهذا ما جعلهم أثرياء ومسلّحين على نحو جيد. هم ليسوا هواةً إذاً.

- ما الذي يريدونه تحديداً؟

- إنّ منظّرهم على صعيد العقيدة يُدعى أبو مصعب السوري. وهو لم يُرسِ فكرة "الدولة الإسلامية" وحسب، بل إنه أيضاً وضع الاستراتيجيات الرامية إلى تجنيد شباب أوروبيين، سواء أكانوا مسلمين في الأصل أو جدداً. ففي أواخر عام ٢٠١٥ أُحصي وجود ١٥٠٠٠ مجاهد أوروبي وغير أوروبي في سوريا والعراق. ويتلقّى هؤلاء المقاتلون التدريب ثمّ يُرسلون إلى ساحة المعركة. ثمّ إن منهم من يُعادون إلى أوطانهم الأم، إمّا لأنهم غير صالحين للقتال، أو لأنهم ضبّاط ممتازون، فيُنشئون "خلايا نائمة" تتحرّك عندما تتلقّى الأوامر بتنفيذ الاعتداءات. لم يعودوا إذاً مرتزقة يحاربون من أجل المال، بل تحوّلوا جنوداً مكتومين في سبيل قضية تُدخلهم الجنّة، كما أنهم ليسوا "ذئاباً مستوحِدة"، فغالباً ما يعيشون مع عائلاتهم حياة طبيعية. ومما قاله أحد المروِّجين لتنظيم داعش "لكي يستحقّ المرء لقب الشهادة يجب أن يكون عنده ما يخسره، ابن أو زوجة أو أمّ..."، أي بعبارة أخرى، يجب ألّا تكون التضحية بالنفس في الجهاد عملاً مجانياً، وإلّا لباتت نوعاً من انتحار "تقليدي".

- هذا تفكير منحرف على نحو رهيب! أبي، كل هذه الحرب تُشنّ باسم الإسلام! فكيف تريد ألّا يخاف الناس؟

- كلنا خائفون لأننا نتعامل مع مقاتلين شديدي التعصّب، لا يميّزون بين ذبح خروف في عيد الأضحى ونحر رهينتهم. نحن خائفون بالتأكيد، لكن كيف نُفهم الناس أنّ الإسلام ليس هكذا؟

- أنا أيضاً أحاول أن أبيّن أنّ الإسلام ليس هكذا، لكنني أحسّ فعلاً أنْ لا أحد يصدقني.

- منذ الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، ومنذ الاجتياح السوفياتي لأفغانستان في العام نفسه، وخصوصاً منذ اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ في نيويورك، بات الإسلام العدوّ الجديد للغرب. من قبلُ أثناء ما عُرف بالحرب الباردة، كان للولايات المتحدة عدوّ هو الاتحاد السوفياتي والنظام الشيوعي. وبعد سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩، وانهيار الاتحاد السوفياتي بعده مباشرةً، يتهيّأ للناظر أن أميركا بدأت تبحث عن عدوّ جديد تسلّط الاهتمام عليه. وحتى الآن، ونتيجة الأعمال الصاعقة التي ارتكبها تنظيما القاعدة وداعش، نجحت في جعل الإسلام، كحضارة ودين

معاً، المسؤول الأساسي عمّا يعرف بـ"صدام الحضارات".

أصبح الإسلام مرادفاً للفظاعة والرجعية والوحشية، وبات من الصعب في الواقع تخليص الإسلام من صور المجازر تلك، ومن تلك الأفلام المصوّرة التي نرى فيها مجموعةً من المتوحّشين يقطعون عنق رهينة غربية أو يُحرقون طياراً أردنياً مسكيناً وهو حيّ. هذا كلّه يلوّث الإسلام وقيمه. على الدول المسلمة، أكثر من أيّ وقت مضى، التحرّك لشجب هذه الأعمال الوحشية. لقد كان راشد الغنّوشي، زعيم حزب "النهضة" الإسلامي التونسي، من الجرأة بحيث صرّح في ٢٠ أيار/مايو عام ٢٠١٦ بما يلي: "يجب أن ينفصل النشاط الديني كلّياً عن النشاط السياسي." وقال إنه "يجب على الإسلام ألّا يبقى رهينة السياسة". وهذا ما يتعارض كلياً مع تصريح الخميني عام ١٩٧٩.

- من جهتي أعتقد أنّ الشجب وحده لا يكفي. بل يجب التصرّف...

- لكنّ الدول الغربية مخادعة. فهي تعرف أن التزمّت الإسلامي هو السائد في بعض البلدان العربية، وأنّ هذه هي العقيدة التي تنوي "الدولة الإسلامية" فرضها على أراضيها.

مع ذلك، يغضّ الأوروبيون الطرف، بحكم مصالحهم، عن تلك الظواهر.

– لقد استقبلت الدول الأوروبية منذ عقود ملايين المهاجرين الآتين من دول مسلمة. فكيف العمل الآن للعيش جنباً إلى جنب معهم؟

– ليست المشكلة مطروحة مع المقيمين في أوروبا منذ زمن طويل. فهؤلاء يعملون ويدفعون ضرائبهم ويتحلّون بالكثير من الرزانة، لكنّ هذا لا يمنعهم، كما سبق أن قلت لك، من الشعور بالصدمة عندما تنشر صحيفة ما رسوماً كاريكاتورية مسيئة إلى النبي. فهو بالنسبة إليهم شخصية مقدسة، ورسمه بطريقة كاريكاتورية أمر لا يتقبّله المؤمنون، فهذا يمثّل اعتداءً على مثالهم الأعلى. هو أمر لا يمكنهم تحمّله، لذلك لا يمكن أن نطلب منهم الموافقة على التهكّم على ذاك الذي يُجلّونه ويحتفون به، والذي عدّه القرآن "خير الأنام".

– أين تكمن المشكلة إذاً؟

– بدأت المشكلة مع ظهور ما سُمّي "الجيل الثاني"، وحتى "الجيل الثالث"، أي أجيال أولادهم وأحفادهم. هؤلاء

وُلدوا في أوروبا ويحملون بطاقات هوية أوروبية، لكنهم ترعرعوا وسط فراغ ثقافي. وغالباً ما كان أهلهم عاجزين عن مواكبتهم فتركوا لأولادهم كامل الحرية. وزاد الأمور سوءاً عيشهم في ضواحٍ غير سليمة وموبوءة، حيث بلغت نسبة البطالة أحياناً ٤٥ في المئة، فيما المعدل الوطني هو في حدود الـ ١٠ في المئة. وهذا وضع محبِط. وإذ أحسّ بعضهم بعدم انتمائه كلّياً إلى فرنسا، تخلى عنها ووجد في الإسلام ما هو أكثر من ملاذ أو حلّ لمخأوفه، وجد فيه هوية. غالباً ما يبدأ كل شيء بارتكاب جنحة بسيطة تؤدّي إلى دخول السجن، وهنا يدخل "ملقّنو العقائد" على الخطّ، فهم أول من يعِدهم بمستقبل مشرق في محاربة هذا الغرب الذي يحتقرهم أو يتجاهلهم، هذا "الغرب الذي خسرت فيه المرأة حشمتها، وحيث يتزاوج الرجال فيما بينهم". وعلى الأثر يصبح بعض هؤلاء الشباب، بعد خروجهم من السجن، مستعداً لمحاربة "الكفّار". هم قلّة بالطبع، لكن عددهم كافٍ لتغذية شبكات المقاتلين الشهيرة في سوريا والعراق.

– أبي، أكرّر عليك السؤال. هل الإسلام، ولست أعني بذلك تفرعاته المدمّرة، ولا الإسلام المتطرف ولا

محمد

تحتل شخصية النبي محمد موقعاً مركزيّاً وجوهرياً في الإسلام. وتعلّق المسلمين برسول الله من المقدّسات، إذ يعدّه مجمل المؤمنين المسلمين "أول من خلقه الله من نور"، كما أن الله "أرسله" للبشرية جمعاء. فقد ورد في الآية ٢٨ من سورة سبأ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾. وفي آية أخرى تحدّث فيها إلى النبي فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (سورة الأعراف، الآية ١٥٨). ومن جهة أخرى يروي علي، صهر الرسول، أن النبي صرّح أيضاً بالقول: "كنت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام".

ومحمد آخر رسل الله هو "خاتم النبيّين". وهو بذلك يُقفل سلالة الأنبياء. هو إذاً حالة روحانية سنيّة وأبدية، وليس لأحد أن يدّعي النبوءة من بعده. وهو بذاته "ثروة روحانية" اصطفاه الله. في السورة الثالثة، الآية ٨١، قال الله: ﴿... آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ...﴾

لكلّ هذه الأسباب، لا تتطابق صورة هذه الروح السامية الشمولية والأبدية مع الرسوم الكاريكاتورية الشهيرة التي أنجزها بعض الرسامين. ولا يمكن أن تمثّل هذه الرسوم في أيّ حال من الأحوال تلك "الروح" البعيدة المتناول.

الأصولي، إنما الإسلام السليم، نعم، هل الإسلام يتماشى فعلاً مع الديموقراطية والعلمانيّة؟

- نعم، وتحديداً لأن هنالك المزيد من المسلمين الذين يتعايشون بتفاهم تامّ مع سائر الجماعات في فرنسا...

- لحظة! هل تجد أن الأمور تجري على ما يرام الآن بين المسلمين وسائر الجماعات؟

- يمثّل الجهاديون أقليّة ضئيلة. وهم لا يمثّلون الطائفة الإسلامية في فرنسا، التي هي ككلّ ليست واحدة ولا متجانسة، لكنّ الحقيقة أن نشاطهم يوحي بأنهم يُلزمون جميع المسلمين بمن فيهم الأكثر مسالمة. وقد تبيّن من استطلاع رأي أجرته مؤسسة "إيفوب IFOP" في نيسان/أبريل عام ٢٠١٦ أن ٤٧ في المئة من الفرنسيين، و٤٣ في المئة من الألمان، يرون أن المسلمين يمثّلون خطراً. إن صورة الإسلام في تقهقر مطّرد في مجمل أنحاء أوروبا.

- إذاً أين تكمن المشكلة؟

- بعض أولاد المسلمين غاضبون، ويحاول قادة داعش الذين يسعون لإرساء "الدولة الإسلامية" في العالم استغلال الأمر، فيبذلون قصارى جهدهم لزيادة المشاكل بينهم وبين

المجتمع الفرنسي. يُشرِّبونهم فكرة أن الغرب يعيش في الخطيئة وأنه ليس فيه أحدٌ يدافع عن القيم الروحية والدينية. ويشرحون لهم أن الحياة الحقيقية هي في مكان آخر، في "الأخوّة الإسلامية"، "في دار الإسلام"، في "الفضيلة وبذل الذات لاستحقاق الجنّة". بهذه الطريقة ينجحون في معظم الأحيان في فصلهم عن الغرب ثم في دفعهم إلى الانقلاب ضدّه.

- لكن هنالك أكثر من ٢٥٠٠ مغربي مجنّد في صفوف داعش، علماً أن المغرب بلد مسلم! وفي هذه الحالة ليست المشكلة مشكلة أوروبا. فلماذا يلتحق هؤلاء الشباب المغاربة بداعش؟

- في المغرب، كما في دول مسلمة أخرى كالجزائر وتونس ومصر، يؤمن البعض بضرورة إقامة "الدولة الإسلامية" المرتكزة على مبادىء المذهب الوهابيّ، أي على التشدّد المطلق، في كلّ أنحاء العالم. ويعتقدون أن داعش قادر على تحقيق هذا الهدف. في تلك الدول، لم تعرف الأحزاب السياسية التقدمية كيف تتوجّه إليهم.

- مع ذلك يا أبي، غالباً ما أسمع أن الإسلام والديموقراطية

لا يتماشيان معاً. أليس الأمر صحيحاً إلى حدٍّ ما؟

- إذا تمكّنّا أن نُثبت على نحو ملموس أنّ بإمكان المرء أن يكون مسلماً، وأن يمارس دينه ويعيش متفاهماً مع الآخرين، فعندها يمكن القول إن الإسلام يتماشى مع الديمقراطية. لا يتقبّل المسلم مبدأ العلمنة بطيبة خاطر، لأن الإسلام بالنسبة إليه دين وأخلاق ورؤية إلى العالم وممارسة يومية... يصعب على المؤمن أن يتصوّر على نحو عفوي أن بلداً مسلماً يمكنه فصل المسجِد عن الدولة. وقد قلت لك إنه باستثناء تركيا لم تجرؤ أيّ دولة مسلمة في الواقع على اعتماد العلمنة. ومن يدري، ربما توصّلت تونس إلى ذلك يوماً ما.

- إذاً أنت تعترف بصعوبة الأمر؟

- أقرّ بأنه طالما استمرّ الأصوليون في نشاطهم في الأحياء المسلمة، وفي زرع الفوضى كي لا أقول أكثر، سيواجه الإسلام برأيي مأزقاً كبيراً في الدول الأوروبية.

- أبي، يتساءل البعض في فرنسا ما الأخطاء أو الأغلاط التي ارتكبها الغرب بحقّ المسلمين. فما رأيك؟

- أعتقد أن الأخطاء والأغلاط قديمة العهد، من

حقبة الاستعمار. ولا تزال الذاكرتان الجزائرية والفرنسية مجروحتين. ولا تزال الجراحات مفتوحة. شهدت تلك الحقبة الكثير من العنف والكراهية والإذلال، ولم تتعافَ العلاقات حتى الآن. وبعد الاستقلالات حدثت موجات هجرة كبيرة بإرادة فرنسا وتشجيعها، وأعقبتها موجات أخرى غير مرغوب فيها هذه المرّة. ولا يمكن القول إنّ المهاجرين المسلمين من المغرب أو أفريقيا قد عاشوا الجنّة في فرنسا، ومن المعروف حجم المعاناة وسوء التفاهم الذي تعرّض له هؤلاء المهاجرون الآتون من الدول المستعمَرة في ما مضى.

قبل ظهور الأصولية الدينية، في أواخر سبعينيّات القرن الماضي تقريباً، كان هنالك جامعيّون كبار متخصّصون في الإسلام والعالم العربي، المستشرقون كما يُسمَّون، قد درسوا على مدى القرن العشرين هذا الدين وتلك الشعوب التي تمارسه بدراية وعطف ورحمة. وإليك أشهرهم: جاك بيرك، مكسيم رودنسون، لويس ماسينيون (متخصّص كبير في الحلّاج، الشاعر الصوفي)، أندريه ميكيل (مترجم ألف ليلة وليلة)، ريجيس بلاشير والشاعر جان غروجان (ترجم

القرآن)، هنري كوربان (متخصّص في الشيعية)، الخ. عمل هؤلاء العلماء من دون أفكار مسبّقة. واليوم يتابع مسيرتهم جيل كيبيل وهنري لوران وأوليفييه روا وبعض الآخرين. وهم مطّلعون جيّداً على الأرضية ويتحدّثون عن حسن دراية. إنما هنالك أيضاً جميع هؤلاء الصحافيين الذين يقدّمون أنفسهم كخبراء، ويتحدّثون عن تلك المسائل من دون أن يكونوا ملمّين بها فعلاً. بعضهم مراقبون جيدون، لكنهم لا يتحلّون بالمعرفة المعهودة عند مستشرقي الأمس واليوم.

- تقول إن فرنسا لم تحسن استقبال مهاجريها. ماذا تعني بذلك؟

- منذ الأزمة النفطية الأولى عام ١٩٧٣، جرى التنديد بالهجرة، المغربية منها على نحو خاص، واتُّهمت بأنها المسؤولة عن ارتفاع أسعار النفط. وظهر في تلك الفترة شعار سخيف يقول: "لا نملك النفط، لكن عندنا أفكارنا"، وحصلت طبعاً أعمال عنف وغزوات إرهابية وارتُكبت جرائم عنصرية، وخصوصاً في مارسيليا وفي المنطقة.

- ولم يرتكب المهاجرون من جهتهم اعتداءات ضدّ فرنسيين، أليس كذلك؟

– في الحقيقة لا، لكن بغضّ النظر عن ذلك، لم تبذل فرنسا، سواء في ظلّ حكم اليمين أو الاشتراكيين، الجهد الكافي لتحسين ظروف عيش المهاجرين وأبنائهم المولودين في فرنسا. مع العلم أنّ جمعيات دعم المهاجرين لم تكفّ عن دقّ جرس الإنذار داعيةً السلطات إلى الاهتمام بهؤلاء الناس. وبعد الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، باشر بعض الأئمة العمل على استمالة المهاجرين الشباب، وطلبوا من النساء التحجّب واحترام تعاليم الإسلام على نحو دقيق. وفي الفترة نفسها طالب بعض المساجين المغاربة بوجبات طعام "حلال". انطلقت المطالبة بالأكل "الحلال" من السجون في الثمانينيّات. واستغرق الأمر التيار الإسلاميّ، الذي أفضى في نهاية المطاف إلى الإرهاب، بعض الوقت ليتمركز في الضواحي الفرنسية وفي بعض أحياء بلجيكا، كحيّ مولانباك في بروكسيل، الذي يُعدّ اليوم الوكر الرئيسي للإرهابيين المغاربة.

– كيف نفسّر انتشار التيار الإسلامي بسهولة في تلك الأحياء؟

– الأمر في غاية البساطة. هناك شباب لا آفاق مستقبلية

لهم، يعيشون في حالة من القلق الثقافي والاجتماعي والسياسي، ولا يجدون ما يتعلّقون به، لا شيء يُرسون عليه رغبتهم في الخروج من مأزقهم، فيأتيهم الإسلام، بالصورة التي تروّج لها الدعاية، بأجوبة جاهزة عن أسئلتهم الوجودية، كما أنّ شبكات التواصل الاجتماعي كما ذكرنا سهّلت عملية الاستمالة العقائدية هذه. فكيف لهؤلاء الشباب، الذين يعيشون معزولين كلّياً في تلك الضواحي من دون أمل بالمستقبل، ألّا يقعوا تحت تأثير فيلم مصوّر يشرح فيه عدد من الجهاديين أنهم وجدوا معنى لحياتهم؟

- لكن أليس في هذا خطر تحميل الأوروبيين والأميركيين كامل المسؤولية؟ ألا يجب على المسلمين أن يبدأوا بالاعتراف بأخطائهم؟

- أوافقك الرأي، حتى وإن أصرَرْتُ على التذكير بتلك الوقائع التاريخية التي توضح ما يحصل اليوم. فليس المقصود تحميل الذنب للآخرين، إنما فقط الإمساك جيّداً بكلّ خيوط هذه القصّة. ومن دون العودة إلى الحملات الصليبية (لا ننسى أنه نُفّذت تسع حملات بين نداء البابا أوربانوس الثاني عام ١٠٩٥، والحرب التي شنّها الأمير إدوار الأول ملك

إنكلترا على المسلمين عام ١٢٧٢!)، ولا التذكير بحروب فرنسا الدينية (الكاثوليك ضدّ البروتستانت) ومجزرة سان بارتيليمي (في ٢٤ آب/أغسطس عام ١٥٧٢) على نحو خاص، لكن يجب ألّا ننسى أن أوروبا ارتكبت هي أيضاً أعمال عنف رهيبة باسم المسيحية.

– حسناً، عظيم، لكن مع ذلك لا أفهم كيف أن فرنسا مسؤولة عمّا يحصل؟

– بمعزل عن عدم وجود سياسة لتحسين ظروف عيش المهاجرين في الضواحي، يكمن خطأ الغرب الأساسي في نظر الكثير من المسلمين في سياسة "الكيل بمكيالين" في مسألة النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين. فسواء عن حقّ أو عن خطأ، يشعر المهاجرون وخصوصاً أولادهم (حملة الجنسية الفرنسية) بالغضب، كلما رأوا الدول الأوروبية تدافع عن دولة إسرائيل، متناسيةً الظلم الذي يلحق بالفلسطينيين. تذكّري التصريح الذي أدلى به فرانسوا هولاند في اليوم الأول من الحرب على غزّة في تموز/يوليو عام ٢٠١٤، والذي تحدّث فيه عن "حقّ إسرائيل في الدفاع عن نفسها". وتبعه تصريح رئيس الوزراء، مانويل فالس، الذي نسي

في هذه المناسبة أنه سبق له أن أيّد عام ٢٠٠٦، بوجود ليلى شهيد (سفيرة السلطة الفلسطينية في فرنسا)، نضال الشعب الفلسطيني عندما كان لا يزال رئيس بلدية إيفري، فأعلن في ذلك اليوم "دعمه الأكيد لإسرائيل"، مشيراً إلى أنّ انتقاد الصهيونية "عداء مقنّع للسامية". لم تصدر أيّ كلمة تعاطف مع الفلسطينيين، ولا أيّ إشارة إلى سقوط مدنيين فلسطينيين. وقد انتشر هذا التصريح على نطاق واسع على شبكات التواصل الاجتماعي. وحتى إنْ نشرت رئاسة الجمهورية لاحقاً بياناً حاولت فيه أن تكون أكثر توازناً، إلا أنّ المجتمع المسلم احتفظ من ذلك بذكرى سيئة جداً... ما عليك سوى الاطّلاع على الأفلام على موقع يوتيوب، التي يعبّر فيها بعض المسلمين عن احتجاجهم على نحو عنيف.

- ألم يغيّر الفرنسيون مذّاك سياستهم في الشرق الأوسط؟

- في كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٦، في ذكرى اعتداءات عام ٢٠١٥، دان مانويل فالس مناهضة السامية وذكّر بتمسّكه بدولة إسرائيل، إذ صرّح بأنه لا يمكنه قبول "كره إسرائيل العدائيّ"، ولم يتفوّه بكلمة واحدة عن ارتفاع نسبة الأعمال المعادية للمسلمين في فرنسا، وعن الاستمرار

في بناء المستعمرات في الأراضي المحتلة. وفي ٧ آذار/ مارس عام ٢٠١٦، في عشاء المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا CRIF، أكّد مجدّداً موقفه هذا: "إنّ العداء للصهيونية مرادف للعداء للسامية ولكره إسرائيل".

– ماذا عن فرانسوا هولاند؟

– في اليوم نفسه، زار رئيس الجمهورية مسجد باريس الكبير حيث شرب الشاي. كانت الزيارة مبادرة رمزية مهمّة إنما غير كافية بالنسبة إلى السكان المسلمين...

– لكنّ هذا النوع من المواقف ليس هو ما يسبّب الإرهاب، أليس كذلك؟

– هذا لا يبرّر أبداً أن يعمد أشخاص مثل مراح والأخوة كواشي وكوليبالي إلى قتل رسامين وأطفال يهود باسم الإسلام، أو باسم فلسطين، كما هي الحال بالنسبة إلى مراح. فالفلسطينيون، سواء في رام الله أو في غزّة، صُدموا كثيراً بتلك الجرائم الشنيعة ولا يريدون أبداً أن يشارك أمثال هؤلاء الأفراد في نضالهم.

– بهذا الخصوص هل يمكننا القول إن المسلمين عنصريون هم أيضاً أم أنهم مجرد ضحايا لعنصرية الآخرين؟

- لماذا تريدين أن يبقى المسلمون، بسحر ساحر، في منأى عن آفة العنصرية التي تضرِب البشرية جمعاء؟ بعضهم عنصريّ طبعاً. هم أيضاً لا يحبّون الاختلاط بالغرباء عن ثقافتهم، وبالذين يعتنقون ديانة أخرى، أو الذين لا دين لهم، سواءٌ أكانوا "لاأدريين" أم ملحدين. فالارتياب حالة عامة. فأن يكون المرء ضحية العنصرية لا يعني بالضرورة أن يكون محصَّناً ضدها.

- نظراً إلى العدد المتزايد للمسلمين في العالم (يتحدثون عن مليار وثلاثمئة مليون مسلم)، أتعتقد أنّ المستقبل لهم؟

- أعرف أنّ الديانات تؤدي دوراً كبيراً جداً في العالم اليوم، وأنّ العصر محكوم بالمسائل التي تدور حول الإسلام، وأنّ الكاثوليكية تشهد تراجعاً، ومع ذلك، لا يمكنني الاعتقاد بأنّ المستقبل مِلكٌ لهذه الديانة أو تلك، علماً أنّ داعش يشنّ حربه على العالم باسم الإسلام.

- متى يمكن أن يزول ما يُعرف بـ"رُهاب الإسلام"؟

- الخوف من الإسلام قائم، أحياناً دون تمييز أو تبصّر. سبق أن تحدّثنا عن ذلك. وبالتالي تنمو عند البعض الكراهية إزاء المهاجرين إجمالاً، علماً أنهم في معظم الأحيان لا

يستفزّون أحداً. طبعاً منهم من يفرِض نمط عيش متشدّداً على زوجته وبناته، وخصوصاً ارتداء الحجاب بالكامل، وحتى ارتداء البرقع الذي أصبح اليوم ممنوعاً (نشير إلى أن بعض النساء كنّ يرتدينه قبل انتشار الإسلام في اليمن مثلاً)، ورفض ارتياد الأماكن المختلطة، أو رفض خضوع الزوجة في المستشفى لمعاينة أطباء رجال، لكنّ كلّ تلك التصرفات تنمّ عن سخافة أكثر مما تنمّ عن الإسلام. مع ذلك، لن يقتنع الجميع بالأمر بين ليلة وضحاها...

- إذاً كلّ شيء يدور حول المرأة، أليس كذلك؟

- نعم. يمكن تفسير النزاعات التي تعصِف بالعالم المسلم اليوم بالحياة المفروضة على المرأة. أنت محقة أكثر لو وصفت الوضع كما يلي: كلّ شيء يدور حول جسد المرأة. في الحقيقة، إنها مشكلة جنسية غير محلولة. فحول جسد المرأة تتركّز كل المخاوف، ولذلك يرى الإسلاميون المتشدّدون أنه يجب ستره وحرمانه الحرية والظهور، وخصوصاً منعه من التحرّك والعيش بحرية، لكن بغضّ النظر عن تلك الممارسات الرجعية، التي تصدم الغرب كثيراً، وكذلك المسلمين المنفتحين،

فإن المسؤولين الأساسيين عن "رُهاب الإسلام" في العالم هم بن لادن وأتباعه، وداعش ومرتزقته. وهذا ما أكّده البروفسور الكبير هنري لورانس، أستاذ تاريخ العالم العربي والإسلامي المعاصر في جامعة كوليج دو فرانس Collège de France في صحيفة **لو فيغارو** *Le Figaro* في ١٥ كانون الثاني/يناير عام ٢٠١٥:

> أعتقد أنّ السبب الأول لرُهاب الإسلام يأتي من بعض المسلمين الذين يحرّضون على الكراهية، وهذا يختلف عن عداء السامية التقليديّ الذي لم يتولّد من ردّ فعل على تصرّف أو عمل ما. وأفضّل عدم استخدام عبارة "عنصرية" التي تُحيل إلى علم الأحياء في وقت يجري التأكيد فيه على أنّه لا وجود للأعراق. أفضّل استخدام عبارة "جناية الكراهية" الأنكلوساكسونية (Hate crime).

– ما السبيل لمحاربة "جناية الكراهية" هذه؟

– على المسلمين أولاً تغيير شيء ما في طريقة عيشهم في الغرب. فبالتربية والثقافة يمكن التوصّل إلى محاربة صورة الإسلام المرعب هذه. عندما نقرأ القرآن بتبصّر، ندرك أنه نصّ على مستوىً كبير من الجمالية، وأنه حافل

بالشاعريّة والإنسانية، لكن بمجرّد محاولة تطبيقه حرفياً وتفسير نصوصه على نحو موارب يمكن تحميله ما يُراد منه...

من جهة أخرى، يجب على الغرب أيضاً الانفتاح والتعرّف على الإسلام وثقافته وحضارته من دون التوقّف فقط عند أعمال العنف التي تغذّي فكرة الصراع بين رؤيتين إلى العالم. نعم، بغية محاربة "رُهاب الإسلام" على نحو فعّال، يجب محاربة حالات الجهل عند كلا الطرفين...

في اليوم التالي...

- أبي، ما هذا الكتاب الذي تقرأ؟

- القرآن.

- لكن سبق لك أن قرأته عدة مرّات.

- نعم، لكنه كتاب غنيّ جداً لدرجة أنه يُفترض قراءته عدة مرات.

- أليس هذا الكتاب الذي حفظته غيباً عندما كنت ولداً؟

- بلى يا ابنتي، على غرار كلّ أبناء جيلي، أُرسلت إلى المدرسة القرآنية في مسجد حيّنا، حيث كان رجل عجوز يُسمّع لنا الآيات واحدة تلو الأخرى.

- ألا تزال تذكرها؟

- نعم، فذاكرتي تعمل على نحو جيد، لكنّني في تلك

الفترة كنت أحفظ سوراً بأكملها، أي فصولاً كاملة، من دون أن أفهم معناها. لم يكن العجوز يشرح لنا القرآن، بل قام عمله فقط على تحفيظنا الآيات غيباً...

- وهل كنت تحفظها فعلاً؟

- الخوف! الخوف يا ابنتي لم يكن يترك لي خياراً آخر.

- وإلّا؟

- وإلّا فكنا نعاقَب بالفلق، أي الضرب بالعصا على أخمص أقدامنا. ولم يكن هذا بمستحبّ.

- أضحك الآن إذ أتخيّلك مرفوع القدمين في الهواء...

- سجّلت ذاكرتي كلّ شيء...

- حسناً لماذا تعيد قراءة هذا الكتاب؟

- لأن هنالك طرقاً متعددة لقراءته، وأنا أحاول اختبار طريقة جديدة.

- كيف ذلك؟

- القرآن يا ابنتي كتاب المسلمين المقدّس، كالإنجيل عند المسيحيين، والتوراة عند اليهود. لكلّ دين كتابه المرجِع، لكن اعلمي أنّ بين الكتب الثلاثة قواسم مشتركة. المهمّ معرفة كيفية قراءة هذه النصوص التي يُفترض أن يكون

تأثيرها شاملاً وخالداً. وأعني بذلك تعلّم القراءة بطريقة ذكية.

- اِشرح لي طريقتك هذه.

- كي أكون واضحاً سأُعطيك درساً بسيطاً في التاريخ. أنت تعرفين أنّ القرآن يتألف من مجموعة الرسائل التي تلقّاها النبي محمّد من الله بواسطة الملاك جبرائيل. وقد اختاره الله كي يكون رسوله إلى القبائل العربية التي كانت في تلك الحقبة تعبد أصناماً حجرية. كان ذلك سنة ٦٢٢ ميلادية.

- نعم، لكن لماذا تقول إنّ هناك عدة طرق لقراءة القرآن؟

- لأنّ هناك أناساً في تلك الحقبة فسّروا نصّ القرآن بطريقة رمزية ومجازيّة...

- عذراً على المقاطعة، لكن ما المقصود بـ"مجازيّة"؟

- المجاز هو صورة تساعد على فهم المعنى الخفيّ في فكرة معينة.

- أعطني مثلاً.

- إليك هذه الأحجية: ما هو الحيوان الذي يدِبّ على أربع قوائم في الصباح، ويقف مستقيماً عند الظهيرة، ويمشي على ثلاث ليلاً؟

- لا أعرف!

- إنه الإنسان! فإذا ما اعتبرنا أنّ حياة الإنسان تدوم نهاراً واحداً، يكون الصباح بدايتها، والظهيرة سنّ الرشد، والليل الشيخوخة، حين يستعمل عصا لتساعده على التنقّل. هذه صورة مجازية، نوع من التشبيه يوضح الأمور من خلال الصور لإيصال المعنى على نحو أفضل.

- لقد فهمت.

- أعود إلى قراءة القرآن، يجب أن تكون قراءة ذكية، أي إنه يجب تفادي قراءة الجمل بحرفيتها، والبحث عن "الروحية" الكامنة وراء ما يقوله ظاهر النصّ.

- يجب أن يكون المرء متمكّناً لتفسير الصورة المجازية.

- كلا، بل يجب فقط أن نفهم أن الله يتكلّم برموز وصور، وأنّ هذه الرموز والصور ليست واقعية...

- ما معنى واقعية؟

- أي منقولة عن الواقع، بمعنى أنها تصورّ الحقيقة كما تبدو لنا. فإن قلت مثلاً إنّ هذا الرجل فقدَ رأسه، فلا يعني ذلك أنّ رأسه قُطع، بل يعني أنه فقد رشده. هذه أيضاً صورة مجازية! مثلاً، عندما يتحدّث الله عن الناس الذين لا يؤمنون

به، يقول: "إنهم تائهون"، أي إنهم ضلّوا طريقهم. أتفهمين؟ عندما يتحدّث عن "يد الله" لا يقصِد بها يداً من لحم ودم. إنها صورة تشير، بالعكس، إلى روح لا ماديّة.

– نعم، فهمت.

– سبق أن شرحت لك ذلك البارحة. وقعت صراعات كثيرة عبر التاريخ، بين الذين قرأوا القرآن حرفياً والذين كانوا يطالبون بقراءته سعياً إلى استكشاف روحية النص بالاعتماد على المنطق. وبعبارة أخرى كان هنالك الذين يرفضون تفسير كلام الله، والذين يثقون بالعقل البشري وبالحرية. ونحن اليوم أيضاً نجد هذين الموقفين. فمن جهة هناك المتعصبون، الذين يرفضون النقاش ولا يقبلون أن يخالفهم الآخرون التفكير، ومن جهة أخرى، المؤمنون بحرية الإنسان وذكائه ويريدون مناقشة هذه الأفكار، وبنتيجة موقفهم هذا يتّهمهم الآخرون بالكفر ويضطهدونهم.

– أعرف ذلك. سبق أن كلّمتني عن التعصّب والأصولية وعن أولئك الذين يفسّرون كلام الله بطريقة متشدّدة، لكن لماذا يُقوِّلون القرآن ما لا يقوله؟

– عندما توفي النبي محمد في ٨ حزيران/يونيو عام

٦٣٢، لم يترك أيّ توجيهات بالنسبة إلى الآيات التي أوحيت إليه بواسطة الملاك جبرائيل. وكان الصحابة يحفظونها غيباً، وبعضهم دوّنها، لكنّ القرآن كنصّ متكامل، أي المصحف، لم يكن موجوداً. واستغرق الأمر أكثر من عشرين سنة إلى أن ألّف الخليفة الثالث، عثمان، لجنة تضمّ ستة من صحابة الرسول الأكفاء، وكلّفها اقتراح نصّ موحّد.

- إذاً، لم يكن هناك قرآن على مدى عشرين سنة؟

- كان القرآن محفوظاً في الذاكرة وفي القلوب، لكنه لم يكن متوافراً ككتاب ملموس. سأخبرك كيف جرت الأمور.

نُقلت السُّوَر (الفصول) أولاً من دون حروف مصوّتة. ولم يجرِ التوصّل إلى نسخة "بحروف مصوّتة" إلا بعد قرنين من الزمن. ومذّاك نشأت نزعتان متواجهتان في النظرة إلى العالم عبر قراءة القرآن. من أصحاب النزعة الأولى علماء كلام ينتمون إلى فرقة المعتزلة، وهم عقلانيون يقرأون النص قراءة رمزية ومجازية، ويعطون الأولوية لقوة المنطق. وفي نظرهم أن "الإرادة الإلهية عقلانية وعادلة، وبإمكان البشر استنباط وجهتها والامتثال لها في أفعالهم". وبعبارة أخرى يرون أن القرآن مخلوق. وفي التوجّه نفسه اقترح بعض

الفلاسفة، أمثال الكندي والفارابي، ولاحقاً ابن سينا وابن رشد، دراسة الطبيعة بحدّ ذاتها، لا بصفتها تشهد على وجود الله. وقد اصطدمت هذه المدارس الفقهية، التي توصَف اليوم بالحديثة، بالتقليديين الذين لم يكتفوا باعتبار القرآن غير مخلوق، بل فرضوا أيضاً قراءته على نحو حرفيّ من دون أيّ تمعُّن أو تأويل. ومؤسّس هذه المدرسة هو ابن حنبل، الذي لم يعترف للإنسان بحرية الحكم في الأمور، ورأى أنه يستحيل على العقل البشري إدراك العظمة الإلهية.

كانت الغلبة للتيار الثاني، وهو ما أفضى بعد عدّة قرون إلى ما تُسمّى الأصولية، التي روّج لها ابن تيمية (القرن الرابع عشر) ومن بعده السّعوديّ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر

- نعم، سبق لك أن شرحت لي كلّ ذلك. ماذا بعد...

- أعرف هذا، لكنني أفضّل التكرار كي تترسَّخ الأمور المهمّة في ذهنك.

إن لم تكن الآيات القرآنية مقيَّدة بزمان ومكان، فهذا يعني استحالة الفكر. إنها هزيمة العقل في وجه عقيدة تقول إنّ كلام الله من طبيعة الله نفسه، لكنْ، عند التمعّن في قراءة

القرآن، نكتشف ما تناوله عكس ذلك. فهناك آيات كثيرة وُضعت في سياق محدَّد، تعالج أو تعلّق على حالات جرت في زمن محدّد من التاريخ. وفي المقابل هناك آيات أخرى ذات بعد يتجاوز الإطار الزمنيّ الذي قيلت فيه.

واليوم يعدّ القول بذلك استفزازاً في نظر الظلاميين، الذين لا يسمحون به، ذلك أنّ قراءة القرآن بهذه الطريقة قد تضرب مشاريعهم الاتجارية القائمة على تخدير الجماهير، لكنّ الرهان يبقى على إعادة إحياء النزعة الإنسانية التي نجدها في القرآن! وهذا أمر لا يُستهان به!

من البديهيّ أنّ الجهل يتغلّب على المعرفة في معظم الأحيان... لكنْ يجب ألّا يكون هذا سبباً للاستسلام. في كتاب Penser le Coran (**النظر في القرآن**)[1]، يلخّص محمود حسين المشكلة بهذه الكلمات:

> عندما يبرهن الفكر الإصلاحيّ أنّ الإسلام هو في الوقت نفسه رسالة سماوية وتاريخ إنسانيّ، وعندما يعيد النظر على ضوء البعد الزمنيّ، وعندما يتبيّن حقيقة "الوحي" الحية عبر تفسيرات تُثبتها

1 Paris, Grasset, 2009.

على نحو نهائيّ، يكون هذا الفكر الإصلاحيّ مدرسة في الحرية والمسؤولية. وهو يمنح كلّ مؤمن فرصة التوفيق بين إيمانه بالله وإدراكه للعالم.

- أطرح عليك سؤالاً بسيطاً، لكنه أساسيّ بالنسبة إليّ. ما هي المبادئ الأساسية للإسلام؟

- لا حاجة بي للعودة إلى النصوص كي أجيبك. أنت، في العمق، تريدين أن تعرفي ما الذي يجعل من الإسلام، كونه آخر ديانة منزلة، ديانةَ سلام وتسامح بما أن كلمة "إسلام" هي جذر كلمة "سلام".

المبدأ الأول: الإيمان بإله واحد كليّ القدرة. فاعتناق الإسلام يقتضي الشهادة بأن "لا إله إلا الله ومحمد رسول الله".

المبدأ الثاني: احترام "أركان الإسلام الخمسة" حرفياً. ما يعني: تأدية الصلوات الخمس اليومية في وجهة القِبلة. صوم شهر رمضان، الامتناع عن الأكل والشرب وممارسة الجنس من شروق الشمس إلى غروبها. إيتاء الزكاة بنسبة ١٠ في المئة من الدخل. الحجّ إلى مكة إنِ استطاع المؤمن

إلى ذلك سبيلاً، وإن كان بصحة جيدة.

هذه الأركان الخمسة هي أسس الإسلام الجوهريّة. يضاف إليها السلوك الأخلاقيّ بما يتطابق مع القيم الإنسانية الأساسية: عدم السرقة، عدم الكذب، عدم الخيانة، عدم القتل، عدم الانتحار (لكونه تحدياً لإرادة الله)، عدم التسبّب بالأذى... وكلّ الديانات تعلّم هذه القيم، كما يجب أن نضيف إليها التضامن والأخوّة والتقوى واحترام الروحانية.

ويدين القرآن على الأخصّ أيّ شخص يتعدّى على حياة إنسان بريء (سورة المائدة، الآية ٣٢): ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

بعد يومين...

- أبي، أودّ في النهاية أن تلخّص ما علينا أن نفعله اليوم لمحاربة الإرهاب الإسلاميّ على نحو فعّال، كما لخّصت عندما شرحت لي مبادئ الإسلام الأساسية. كان الأمر في غاية الوضوح وأنا أذكرها جيداً.

- حسناً، يجب العمل على المدى الطويل، إذ ما من وصفة سحرية. هذا في رأيي ما يجب فعله:

١- يجب المراهنة على التربية. أي إعادة النظر في الكتب المدرسية، وتعليم تاريخ الديانات الموحّدة الثلاث بموضوعية. من جهة أخرى، على التعليم بمجمله أن يركّز على نحو أساسيّ ودائم على تعليم الأولاد التسامح ورفض التعصّب، وأن يوضح لهم آليات العنصرية. باختصار، يجب وضع سياسة تربوية

طموحة لمحاربة الانحرافات التي تقود إلى الإرهاب على نحو فعّال. ويجب أن تشمل هذه التربية المدنية كلّ المواد التدريسية. وهذا العمل، الذي يُفترض أن يبدأ في المدرسة الابتدائية ويُستكمل في الثانوية، سيعطي نتائجه لاحقاً عندما يكبر هذا الجيل.

٢- إعادة النظر في كل ما يجري في السجون، وإعداد الأئمة وتوفير الإمكانات لهم لتوعية الشباب المسجونين بغية إعدادهم للاندماج مجدداً في الحياة العملية. وملاحقة المجنِّدين وتعطيل قدرتهم على الأذى.

٣- إعادة النظر في كلّ ما يحدث في المساجد. فلا يُسمح للأئمة بالحصول على التمويل من دول أجنبية. ويجب ألا يحقّ لأي كان أن ينصّب نفسه إماماً. فلكي يصبح إماماً، عليه أن يخضع لتدريب معيّن ويُعَدّ للعمل على التهدئة لا على التبشير.

٤- تغيير البيئة السكنية وجوارها بالعمق، بالتعاون مع العائلات، والاهتمام أكثر بتوظيف الشباب المتحدّرين من الأوساط الأكثر ضعفاً.

٥- التشدّد في تطبيق مبدأ العلمانية. فلا يُسمح لأي

ديانة بالتدخّل في الشأن العامّ. لهذا، من الضروريّ تقديم شرح واضح لما هي العلمانية، وهذه مهمّة يمكن أن تضطلع بها وسائل الإعلام ووزارة التربية الوطنية.

... وأخيراً

- سؤال أخير: ما الذي عليّ فعله، أنا الفتاة الصغيرة المسلمة بتربيتي، إنما العلمانية والفرنسية والمغربية، مثلك، لمكافحة جذور الإرهاب من موقعي؟

- ثابري في طريق المعرفة والشكّ، تابعي دراستك وابقَي متيقّظة، وكوني مثالاً صالحاً يتمتّع بقيم الاحترام والتسامح، وليكن عندك فضول معرفة الآخر. الثقافة وحدها هي القادرة على المدى الطويل على القضاء على الأفكار الإرهابية المقيتة من أي طرف أتت. اِقرئي واسمعي الموسيقى واذهبي إلى المسرح وسافري وتغلّبي دوماً بثقافتك على كلّ الأفكار المسبّقة. عليك أيضاً الدفاع عن حقوقك كصبية في عالم حُرمت فيه نساء كثيرات حقوقهنّ. أنت محظوظة لانتمائك إلى بلدين، إلى حضارتين، فلتكن هذه ثروتك وفرصتك.

سيتحقّق الانتصار على الإرهاب، ربما عن طريق النضال السياسيّ أو حتى بالسلاح، لكن إياك أن تنسَي أنه لا يجوز لدولة القانون أبداً أن تتخلّى عن قيمها. فبالقانون والعدالة تجب مكافحة الإرهاب لا باستخدام أساليبه وأسلحته. صحيح أنّه لا حيلة لنا في مواجهة الوحشية، وهذا ما يذكّرني بقول لفولتير في كتابه **بحث في التسامح** *(Traité sur la tolérance)*: "بِمَ أردُّ على مَن يريد أن يربح الجنّة بذبحي؟". فاليوم لا يمكننا الردّ إلا بقوة الحقّ والقانون وبحزم القضاء.

– نعم فهمت، وهذا هو السبيل الطبيعي، لكن ماذا عن الأشخاص الذين تلقّوا تربية صحيحة ومع ذلك جنحوا إلى الإرهاب؟

– سبق أن تحدثنا عنهم، لكنني أقرّ بأن التفسير الذي يمكنني إعطاؤه مرتبط بعلم النفس أكثر منه بالسياسة. ففي ذلك أمرٌ خفيّ ومكتوم، أمر من نوع المحرّم أو اللاوعي. فليس بالإمكان دوماً فهم الإنسان، والمظاهر تخدعنا والتفسيرات التقليدية لم تعد صالحة. فما الذي يجعل إنساناً ما يتّخذ في قرارة نفسه قراراً بتغيير قدره؟ قد يقال كآبة

الحياة اليومية، أو نوع من الإحباط غير المعلن، أو رؤية بائسة تأتي الصعوبات والمظالم المتزايدة على نحو صارخ ومعروف لتجعل هذا الإنسان قابلاً للانقلاب. فيقول في نفسه: "بما أنه لا يمكنني تغيير العالم أغيّر ما أنا عليه وألتزم قضية ما." فهو ينظر حوله ولا يجد شيئاً يطمئنه، فيسعى إلى ما هو بعيد، بعيد جداً عنه، جسدياً وفكرياً على حدٍّ سواء.

كثيرة هي عوامل التغيُّر السريع والمفاجئ، وقد حاولت رصد بعضها في أوساط شباب أوروبيين من أبناء المهاجرين.

ما نلحظه غالباً هو شكل معقّد من الكبت. ومعه لا ينجح الإنسان في تحقيق ذاته وكيانه، أي أن يجد له مكاناً في المجتمع. بعضهم مهووس بمفهوم "المكان" هذا، بأن يكون له شأن، وإنساناً معروفاً، أي معترفاً به. نحن نعيش في عالم يحتفي بالفرد والنجاح والكمالية. فالإعلانات على الجدران والشاشات (التلفزيون، الهواتف والألواح الذكية Ipad) جارفة. وهي تستفزّ الشخص الذي لا يجد له مكاناً في هذه الاحتفالية المستمرّة بالقوة والنجاح والرجولة. فمفهوم الفرد، بصفته كياناً فريدا ومميزاً، هو الغالب في الغرب.

– بالضبط، فالغرب يعترف بالفرد، بعكس ما هو سائد في الدول التي يتحدّر منها الأهل...

– فعلاً، والبعض لا يشعر بالحاجة إلى العيش كفرد، وعلى الأرجح لأنهم مقتنعون أيضاً بأنّه لا آفاق مستقبلية معدّة له. يبدأ الأمر في المدرسة حيث الفشل الدراسي المتلاحق، إلى جانب غياب بنية عائلية مطمئنة وموحّدة وسعيدة يلتقي حولها الجميع ويتبادلون الأحاديث. فلا يبقى سوى الشارع، وبيت الدرج الشهير، ومعاشرة الأكبر سنّاً، ومنهم من تمكّن من كسب المال السريع بسهولة فانعدمت عنده المقاييس.

– ماذا يفعلون عندها؟

– أصبحت العلاقات العائلية مهمة. وإزاء العجز عن العيش في عائلة "طبيعية"، يصطنع البعض عائلة له ضمن "العشيرة"، أي العائلة الكبيرة. فيختار بعض الإخوة العمل معاً وخوض المغامرة. فالملاحَظ أن الاعتداءات الأخيرة التي حصلت في فرنسا وبلجيكا اقتُرفت على يد إخوة. هناك الأخوان كواشي، والأخوان كوليبالي، والأخوان عبد السلام، كما ظهر في أمكنة أخرى الأخوان تسارناييف

الشيشانيان، اللذان هاجما بالقنابل المشاركين في ماراتون بوسطن في ١٥ نيسان/أبريل عام ٢٠١٣، فأوقعا ثلاثة قتلى و٢٦٤ جريحاً، كما يمكن التذكير بالدور الحاسم الذي أدّاه عبد القادر مراح، الشقيق الأكبر لمحمد، الذي قتل عدداً لا بأس به من الأشخاص في فرنسا. كان عبد القادر كما تعرفين يتردّد على أوليفييه كوريل، السوريّ اللاجئ إلى فرنسا الذي يعيش باطمئنان في أرتيغا في منطقة أرياج...

– لكن ما قيمة هذه المحصّلة؟

– إنّ روابط الدم تسرّع عملية الانتقال إلى العمل، فالشقيق لا يخون، وولاؤه مضمون. لا تمكن خيانة الأخ فلا يستطيع التراجع. فيُنفَّذ عندها "عمل جنوني ثنائيّ" ينمّ عن تلك الحاجة إلى العائلة وعن الحنين إلى القبيلة. وغالباً ما نلحظ في تلك العائلات ذكَراً مهيمناً يمارس سلطته على الإخوة والأخوات. لا تزال العائلة الأبوية الموروثة من موطن الأهل الأساسيّ قائمة في أوروبا. أتعلمين أنّه كان هناك ستة إخوة بين إرهابيّي ١١ أيلول/سبتمبر؟

– هذا يعني أن العمل بين الإخوة هو رفض للفرد كما هو معترف به في أوروبا؟

- في ذلك تمرّد على الحرية التي يتمتّع بها الأفراد في أوروبا، وخصوصاً حرية المرأة. هنا تكمن المشكلة: المرأة، صورة المرأة، جسد المرأة، الحقوق التي تحميها وتمنحها استقلاليتها. كلّ هذا لا يحتمله مثلاً مغربيّ تربّى على الاحتشام والرياء وعلى فوقية الذكر، وذلك بتشجيع من الأم. هو يخاف أن تصاب أخته أو زوجته بعدوى هذا التحرّر الذي يحرم الرجل سلطته عليهما.

- أهو خطأ الأهل؟

- قال أحد إخوة محمد مراح إنه انفصل عن عائلته ولم يعد هناك ما يربطه بها. كما قال إنه يجب "تربية" الأهل. على نحو عامّ، الأمّ هي التي تزرع هذا النوع من الأفكار في رأس الصبي. تفعل ذلك لأنّ هذا ما تفرِضه التقاليد من دون أن تعي مدى الضرر الذي يتسبّب به ذلك في مجتمع لا يتقبَّل هذه الأفكار. ويؤدي هذا التفاوت إلى حدوث قطيعة مع البيئة التي هاجرت اليها العائلة.

- وماذا عن المغاربة المقيمين في المغرب وليسوا في بلاد المهجر، الذين يذهبون إلى سوريا للمشاركة في الجهاد؟

- دول المغرب العربي تتطوّر اليوم وفق نمط العيش الأوروبي، وقد بات هاجس الإسلاميين الشباب هو المغربية التي تتحرّر، والتونسية التي تطالب بحقوقها، والجزائرية التي ترفض الخضوع لشقيقها البكر، إلخ. وفي المغرب إسلاميون في كلّ مكان من المجتمع تقريباً. هم لا يقاتلون، لكنهم لا يواظبون على إدانة انعدام "التشدّد الأخلاقي" وانتشار "الرذيلة" والفساد وعدم احترام مبادئ الإسلام. ومنهم من يلتحقون بمعسكر الجهاديين لاقتناعهم بأنهم ولدوا لإعادة فرض الفضيلة والأخلاق. طبعاً هم لا يحاربون الغرب، بل التأثيرات الغربية في بلدهم الأمّ حيث لم يجدوا هم أيضاً "مكاناً" لهم.

- وكيف يتصرّفون؟

- في تونس ليست الشرطة والجيش بالقوة الكافية، فاستغلّ بعض الجهاديّين الأمر لقتل سيّاح ألمان وبريطانيين، مصيبين بذلك عصفورين بحجر واحد: هدّدوا السياحة وقتلوا غربيين.

- لماذا؟

- لأنهم يرون أنّ الفساد يأتي من السياحة. فالسياحة

تسمح بشيء من التحرّر في الممارسات، وهو ما يؤدّي إلى انتشار الدعارة التي يستفيد منها الأجانب، وبالتالي يجب محاولة القضاء على هذه الأجواء. هاجسهم الأول هو التطهير، والثاني كما ذكرت من قبل، هو جسد المرأة المسلمة ورغباتها. هذا الجسد يجب ستره وحجبه وإبعاده عن عيون الآخرين. فالجهاديون مهووسون غالباً بجسد المرأة.

- أهم مرضى؟

- لسنا نحن من يحدّد ذلك، بل الأطبّاء النفسيون الذين يعاينونهم عندما تتمكّن الشرطة من اعتقال بعضهم.

- كيف يساعد قتل سيّاح ألمان وإيطاليين على نجاح قضية الجهاد؟

- لا يساعدها بشيء! الإرهاب يزرع الرعب. المهمّ جعل أوروبا ترتعد وكفى.

- لمَ لا تتّحد الدول العربية لمحاربة هذا الإرهاب الذي يشوّه صورة الإسلام والعالم العربي؟

- تعلمين جيداً أن العرب لم يتمكنوا قطّ من الاتحاد. إنها قصة قديمة. اُنظري إلى خارطة العالم العربي: الجزائر

تعادي المغرب وتحاول بشتّى الوسائل خلق المشاكل لها في خصوص الصحراء الغربية، التي استولت عليها عام ١٩٧٤. وفي الجهة الأخرى انظري إلى ليبيا، التي تتخبّط في الفوضى وهو ما يستغلّه تنظيم داعش ومناصروه. أما مصر، فيرأسها ديكتاتور رمى ما يزيد على ٤٠٠٠٠ معارض في السجن، كما قضى على الكثيرين (أحيلك على التقرير المفصّل بشأن هذا الموضوع الصادر في نيسان/أبريل عام ٢٠١٦ عن منظمة **هيومان رايتس واتش** *Human Rights Watch*). بينما لبنان لا يزال في حالة حرب مع إسرائيل، وها هو مضطر إلى استقبال أكثر من مليون لاجئ سوري. والأردن أيضاً مهدّد بخطر تنظيم داعش، وهو أيضاً مضطر إلى استقبال لاجئين سوريين، فيما العراق، لا يمرّ أسبوع من دون أن تنفجر فيه سيارة مفخّخة. وفي سوريا مأساة بكل معنى الكلمة. ففي ٢٢ نيسان/أبريل عام ٢٠١٦ قدّرت الأمم المتحدة عدد ضحايا الحرب المدنيين بـ٤٠٠٠٠٠ نسمة، فضلاً عن ملايين اللاجئين والنازحين...

- هذا يسبّب الإحباط!

- نعم! هناك ما تسمّى دولاً عربية، لكن القول بوجود

كيان عربي موحّد ومتين وقويّ ومتجانس، فقطعاً لا!

- إذاً قد يقوى الإرهاب في المستقبل؟

- للأسف نعم. لم ننتهِ من هذا الآفة بتفرّعاتها الكثيرة والمعقّدة.

- قل لي يا أبي، ألا يمكن أن تنهي ولو ببريق أمل بسيط؟

- بلى، لأنّ كلّ رهاننا هو على التربية، على أمل المساهمة بذلك في نشأة جيل من الشباب متحرّر من الأوهام التي تجعله يصدّق أي شيء. علينا أكثر من أيّ وقت مضى تشجيع التربية، في المدرسة والأُسر ووسائل الإعلام، وفي كلّ مكان يلوح فيه الأمل بشفاء الأحياء الذين أفسدهم هذا الكمّ من الكراهية والأكاذيب.

خاتمة

إنه تفرّد المفكّر ذي التربية الإسلامية، الذي يجد نفسه عالقاً بين حرية المعتقد التي يتمتّع بها في فرنسا، والانتماء إلى الأمّة الإسلامية التي لا تسمح له بممارسة هذه الحرية.

إن كل ما يمتّ إلى الإسلام بصلة قد اتّخذ منحى مأساوياً، فهل الإسلام على هذه الدرجة من الهشاشة؟ فحالما يقع سوء فهم بسيط تنزل إلى الشارع الجماهير المتعصّبة في حالة هستيرية تحرق أعلام الدول الأوروبية وصور رؤسائها.

وددنا أن نقول لهم: "هدّئوا من روعكم، إنه مجرد رسم! وليس النبي ماثلاً بنفسه في هذا الكاريكاتور، لأن النبي روح سامية يستحيل تجسيده، ويستحيل تمثيله بجماله وبهائه. فبالله عليكم لا تُنزلوا النبي إلى هذا المستوى من السطحيّة!"

لم يلقَ هذا الكلام آذاناً صاغية! فالأمّة تضمّ المسلمين جميعاً، أبراراً وأشراراً. لا يمكن الخروج منها. فمن يولد مسلماً يمت مسلماً. والخروج من الإسلام قطيعة مكلفة جداً، وتهمة الردّة له بالمرصاد، لأنّ الله يعاقب المرتدّ، وبالطبع ليس هناك ما يفرض عقاباً في هذه الدنيا، لكنّ هذا لا يمنع بعض الدول من إصدار أحكام بالإعدام أو التجريد من الحقوق المدنية.

ومن خصائص الجماهير أنها صمّاء عمياء.

في أحد الأيام، وبعد انتهائي من إلقاء محاضرة في جامعة فاس، وقف أحد الطلاب وطرح عليّ السؤال التالي على نحو مباشر:

- أتؤمن بالله؟

بعد لحظة صمت أجبته:

- إنه سؤال عن خصوصياتي، ولست ملزماً الردّ عليك.

ضجّت القاعة فأدركت أنني أمام محكمة مرتجلة.

وحاولت أن أحدّث هؤلاء الطلاب عن مبدأ حرية المعتقد، وعن حقّ الخصوصية في ممارسة الإيمان أو عدم الإيمان، وعن حرية اختيار نمط الحياة والتفرّد.

وكان هذا جهداً فارغاً، إذ اصطدم كلامي هذا بجدران كثيرة وعصيّة. كلام غير مقبول ومرفوض.

وصرخ أحدهم:

- أنت ملحد ولا تجرؤ على الاعتراف بذلك!

فأجبت بالقول:

- لن توقعوني في هذا الفخّ. فأنا أطالب بحقّي في الاحتفاظ بقناعاتي لنفسي وعدم تشاركها مع أحد.

وعلا الصراخ والصفير في القاعة. وأحسست أنه قُضي عليّ. فساعدني عميد الجامعة على الخروج من باب خلفيّ وعلى مغادرة فاس، مسقط رأسي، في الليلة نفسها.

إنها واقعة قديمة العهد. وأنا أنظر إليها اليوم كواحدة من أولى بوادر التعصّب الدينيّ في المغرب. كان ذلك عام ١٩٧٧!

مذّاك، وأنا لا أني أفكّر في الإسلام وأتمعّن فيه وأقرأ النصوص والتحليلات. وبقدر ما أتأثر، لا بل تهتزّ مشاعري لجمال النص القرآنيّ، بقدر ما ينتابني الخوف في كلّ مرة أقرأ فيها بعض الآيات.

أما من حرّرني من هذا الخوف، فهو والدي، الذي كان

يشكّ في كوني لا أثابر على ممارسة هذا الإسلام الطاغي.

قال لي: "ليس عليك أن تقدّم حسابات أمام أحد على هذه الأرض. أنت مسؤول عن أفعالك أمام الله. فإن فعلت شراً لقيت شرّاً، وإن فعلت خيراً جوزيت خيراً. المهمّ هو أن تكون فاضلاً وشريفاً وعادلاً، وأن تفي بالعهد الذي تقطعه، وأن تحترم أهلك وأساتذتك، وأن تكون مستقيماً ومتضامناً وودوداً. وفي ما تبقى سترى أن الله واسع الرحمة".

ولم يمنع هذا أن يكون الإسلام قد تحوّل، منذ ثلاثين سنة، قضية أساسية في الحياة السياسية والاجتماعية في فرنسا، وفي أوروبا على نحو عام.

اكتشفت في العلمنة فسحة من الحرية لا تتوافر في أي بلد مسلم (ولا حتى في تركيا، كما شرحت لابنتي). وتطبيق هذا المبدأ سمة حضارية. وليس ما هو سلبيّ في الفصل بين الدولة والكنيسة، وبين الدولة والكنيس، وبين الدولة والجامع، بل بالعكس يجب اعتبار ذلك إجلالاً للديانات.

لكنّ مشكلة الإسلام هي مع العلمانية. فبعض المسلمين يتآلفون معها، فيما البعض الآخر لا يفقه إطلاقاً ما المراد بهذا الفصل.

تفرض العلمانية حرية التعبير، وليس لهذه الحرية من حدود. وسواء أعجبنا الأمر أم أغضبنا، فعلينا الإقرار بأن الذين يعبّرون عن أنفسهم بالكلام والقول والرسم والكاريكاتور والشعر، لهم الحرية، الحرية المطلقة في التعبير عمّا يعتقدونه.

لكن من الصعوبة بمكان أن نجعل الآخرين يقبلون المسلّمة القائلة إن حرية التعبير كلٌّ متكامل، إذ لا يتقبَّل ملايين المهاجرين المسلمين العاملين في أوروبا التجديف على نبيّهم. وما دامت الشتيمة تطاول المسيحيين أو اليهود فهم لا يعبأون بالأمر، لكن حالما طلبت الصحيفة الهولندية **جيلاند بوستن** *Jyllands–Posten* (في ٣٠ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٥) من حوالى عشرة رسامين إطلاق العنان لموهباتهم الكاريكاتورية ضدّ نبي المسلمين، أُسقط بيد الغالبية المسلمة وهي تكتشف ما معنى حرية التعبير. فعَدّت تلك الرسوم إهانات ومسّاً بكرامة هذه الشخصية المقدّسة عندها.

ويصعب على الأوروبيّ استباق ما قد تثيره هذه المبادرة من ردود فعل في العالم الإسلاميّ. وقد نُظّمت تظاهرات كثيرة ووقعت أعمال كثيرة وظهرت حالات كثيرة من عدم

فهم ما يجري.

عندها تجلّى لي تفرّدي من تلقاء نفسه. فأنا لم أرَ نفسي يوماً مع تلك الحشود الهستيرية، ولا أيّدت نشر تلك الرسوم الكاريكاتورية، معترفاً في الوقت نفسه لأصحابها بحقّهم في رسمها ونشرها. وفي رأيي كان من المفترض التعامل مع كلّ ذلك باللامبالاة.

وهذا في الأساس ما أردت إفهامه لابنتي.



يفجّرون أنفسهم ومن حولهم باسم الدين.

يلجؤون إلى العنف والقتل لإيجاد معنى لحياتهم ولموتهم.

من هم هؤلاء الشباب؟

يحاول الطاهر بن جلون، في حوار عميق وحقيقي مع ابنته، أن يجيب عن أسئلة كثيرة تتبادر إلى ذهننا عند حدوث أي عمل إرهابي. ويستعرض تاريخ كلمة 'إرهاب' منذ الأحداث الأكثر دموية في الثورة الفرنسية وصولاً إلى ما يشهده الوضع الحالي من انفلات الأصولية الإسلامية من عقالها.

وأمام قلق ابنته التي تطالبه ببريق أمل بسيط، يؤكّد بن جلون أن الرهان هو على التربية، وذلك على أمل المساهمة في نشأة جيل من الشباب متحرّر من الأوهام التي تجعله يصدّق أي شيء.

الطاهر بن جلون كاتب وروائي مغربي حائز 'جائزة دبلن للآداب' عام 2004 و'جائزة إمباك الأدبية' عام 2000. ترجمت رواياته إلى عدد من اللغات. صدر له عن دار الساقي 'عشرُ ليالٍ وراوٍ'، 'عينان منكسرتان'.



www.daralsaqi.com

ISBN 978-6-14425-935-1



